

السيد جمال الدين الأرقطاني

(١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ) (١٨٣٩ - ١٨٩٧ م)

لئن كان محمد بن عبد الوهاب يرى إلى إصلاح العقيدة ، ومدحت باشا يرى إلى إصلاح الحكومة والإدارة ، فالسيد جمال الدين يرى إلى إصلاح العقول والنفوس - أولاً - ثم إصلاح الحكومة - ثانياً - ، وربط ذلك بالدين . «مدحت» يرى إصلاح الشعب من طريق إصلاح الحكومة ؛ وجمال الدين يرى إصلاح الحكومة من طريق إصلاح الشعب . مدحت يقول : إن الحكومة راع وإذا صلح الراعي صلحت الرعية ، والغاية (الدستور) فإذا وضع ونفذ فالتخير كل الخير للأمة . ويقول جمال الدين : « إن القوة النيابية لأي أمة لا يكون لها قيمة حقيقية إلا إذا نبتت من نفس الأمة ؛ وأي مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك أو أمير ، أو قوة أجنبية محررة له ، فهو مجلس موهوم موقوف على إرادة من أحدثه » . فالعقول والنفوس أولاً ، والحكومة ثانياً .

ماذا تنفع الحكومة الصالحة إذا كان الشعب غير صالح ؟ لقد علمنا التاريخ أن الحكومة لا تستقيم إلا إذا كانت في الأمة رأى عام يخفيها ، ويلزمها أداء واجباتها ، والوقوف عند حدها ؛ فإذا لم يكن ذلك فالطبيعة البشرية تملى على الحكام أن يستأثروا بالمنافع ؛ وغاية ما يتوقع من الحكومة الصالحة غير المؤسسة على قوة الأمة ويقظتها أن تكون موقوتة بوقتها ، فإذا زالت حل محلها من لا يصلح ؛ إذ لا شأن للأمة في اختيارها ، ولا رقابة لها على أعمالها .

/ يقول سنة ١٢٩٦ هـ : « هَبُوا أَنْ مَجْلِسًا نِيَابِيًّا أَنْشَاء فستجدون أن حزب الشمال لا أثر له ؛ وسيفر الأعضاء كلهم إلى حزب اليمين ، وسيكونون كلهم آلة

صماء . . . وسيرى كل عضو أن الدفاع عن الوطن ، ومناقشة الحاكم الحساب قلة أدب ، وسوء تدبير ، وقلة حُكْمَة ، وتهوُّرًا . لا . لا . العقول والنفوس هي المقدمة ، والحكومة الصالحة هي النتيجة .

أفغانى الأصحاب ، شريف النسب ، ينتمى إلى الحسن بن على (ولشرف النسب في هذه البلاد حرمة وإجلال يفوقان ما في غيرها من الأقطار) . جمع إلى شرف النسب عزة السيادة ؛ فقد كان أهل بيته سادة على عمل من أعمال أفغان^(١) . ولكن مالنا ولهذا كله ، فقد تنبت النبتة الطيبة في الأرض السبخة ، والنبتة الكفاسدة في الأرض الصالحة ، فإذا نبتت النبتة الصالحة في الأرض الصالحة اكتفينا بالتسجيل . فأسرة جمال الدين لم تنبت إلا جمال الدين ، وأسرة محمد عبده لم تنبت إلا محمد عبده ؛ وما أكثر الأسر التي تشبه أمرتيهما أو تفوقهما ، ومع هذا لم تنبت شيئًا . فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

تعلم — كما يتعلم شباب زمانه في بلاده — الفارسية والعربية على طريقة تشبه الطريقة الأزهرية ، ولا تمتاز عنها إلا بدراسته الواسعة في الفلسفة الإسلامية والتصوف ؛ كما هي عادة الفرس إلى اليوم ، فكان ذلك نواة ثقافته ؛ ودرس في الهند الرياضة على الطريقة العصرية ، وساح سياحة طويلة في الأقطار الإسلامية إلى مكة ، فأكسبه ذلك تجارب عملية واسعة ، وخبرة بحياة الشرق . ووقعت بلاده في منازعات سياسية على من يتولى الملك ، فانغمس فيها وتشيع بجانب منها وقام منه مقام الوزير ، وانتصر وانهزم ، ولمس تدخل الدول ، فعلمه ذلك كله السياسة وخصومتها ، ودهاءها والأعيبها .

وتعلم الفرنسية وهو كبير ؛ أتى بمن يعلمه الحروف الهجائية ، ثم انفرد بتعليم

(١) أعمال أفغان : أقطارها وما تحت حكمها من البلاد .



السيد جمال الدين الأفغانى فى شبابه

نفسه نحو ثلاثة أشهر يحفظ من مفرداتها حتى استطاع أن يقرأ من كتبها ويترجم منها ، ثم توسع في ذلك أثناء إقامته بباريس ، ومع هذا فلم يحدقها كل الحدق .
كم من الناس علموا أكثر مما علم ، وقرأوا أكثر مما قرأ ، ووطنوا أكثر مما وطن ، ولكن لم يكن لأحد منهم شخصية كشخصيته : ذكاء متوقد ، وبصيرة نافذة ، وتوليد للأفكار والمعاني من كل ما يقع تحت سمعه وبصره ، واستقصاء للفكرة حتى لا يدع فيها قولاً لقائل « له سلطة على دقائق المعاني وتحديداتها ، وإبرازها في صورها اللاتقة بها ، كأن كل معنى قد خلق له ؛ وله قوة في حل ما يُعضل منها كأنه سلطان شديد البطش ، فنظرة منه تفكك عقدها . كل موضوع يلقي إليه يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه فيأتي على أطرافه ، ويحيط بجميع أكنافه ، ويكشف ستر الغموض عنه ، فيظهر المستور منه . وإذا تكلم في الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها ؛ ثم له في باب الشعريات قدرة على الاختراع ، كأن ذهنه عالم الصنع والإبداع ، وله لَسَنٌ^(١) في الجدل ، وحِذْقٌ في صناعة الحجة لا يلحظه فيها أحد إلا أن يكون في الناس من لا يعرفه ... »

« أما أخلاقه فسلامة القلب سائدة في صفاته ، وله حلم عظيم يسع ما شاء الله أن يسع ، إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه ، فينقلب الحلم إلى غضب ، تنقض منه الشهب ، فبينما هو حلِيمٌ أو اب^(٢) ، إذ هو أسد وثاب ؛ وهو كريم يبذل ما بيده ، قوى الاعتماد على الله ، لا يبالي ما تأتي به صروف الدهر .
أما خلقه فهو يمثل لناظره عربياً محضاً من أهالي الحرمين ، فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الأولين من سَكَنَةِ الحجاز . رَبْعَةٌ^(٣) في طوله ، وسط في بنيته .

(١) اللسن : الفصاحة .

(٢) أو اب : راجع إلى الاستفجار .

(٣) ربة : متوسط القامة .

قحى في لونه ، عصبى دموى في مزاجه ، عظيم الرأس في اعتدال ، عريض الجبهة في تناسب ، واسع العينين ، عظيم الأحداق ، ضخم الوجنات ، رحب الصدر ، جليل المنظر ، هش بش عند اللقاء ، قد وقاه الله من كمال خلقه ما ينطق على كمال خلقه^(١) .

فهم رسالته وما تتطلب من جهاد ، وما تقتضيه من أعباء ، فلم يرتبط بأسرة ولم يستعبده مال ، وعاش لأفكاره ومبادئه ، تكفيه أكلة واحدة في اليوم كله ، وإن أفرط في الشاي والتدخين . أعد نفسه للتقى في كل لحظة ؛ فنافيه لا يتعبه إلا شخصه . ملابسه على جسمه ، وكتبه في صدره ، وما يشغله في رأسه ، وآلامه في قلبه .

ولقد طوّف في فارس والهند والحجاز والآستانة ، وأقام فيها . ولكن لعل أنحصب زمنه ، وأنفع أيامه ، وأصلح غمرسه ، ما كان في مصر مدة إقامته بها من أول محرم سنة ١٢٨٨ إلى سنة ١٢٩٦ هـ (مارس سنة ١٨٧١ - أغسطس سنة ١٨٧٩) . ثماني سنين كانت من خير السنين بركة على مصر ، وعلى العالم الشرقى ؛ لا بما أفاد من جمال مظهرها وحسن رونقها وسعادة أهلها ، ولكن لأنه فيها كان يدفن في الأرض بذوراً تنهياً في الخفاء للنماء ، وتستعد للظهور ثم الإزهار ، فما أتى بعدها من تعشق للحرية وجهاد في سبيلها فهذا أصلها ، وإن وجدت بجانبها عوامل أخرى ساعدت عليها وزادت في نموها .

لقد جرّب « السيد » أن يبذر بذوراً في فارس والآستانة فلم تنبت ، ثم جربها في مصر فأنبئت .

كان من حسنات رياض باشا أن أعجب « بالسيد » ورأى فيه عالماً لا من طراز من عرف من العلماء ، يعرف الدين ويعرف الدنيا ، ويعجيد الفهم ويعجيد القول ،

(١) من وصف الشيخ محمد عبده له .

فمكن له من البقاء في مصر وسعى عند الحكومة فقررت له عشرة جنيهاً شهرياً .
كانت هذه السنوات الثماني من أشقّ السنين على مصر ، إذ كان حالها حال
أسرة يأتها رزقها رغداً من كل مكان ، فلم تكف بدخلها الذي يسد حاجتها ،
فاستدانت لرفاهيتها ، حتى إذا بلغت الغاية في الدين أخذ الدائنون يحجرون عليها
ويتدخلون في شؤونها ، ويشرفون على مصادرها ومواردها ، ولا يتركون لها شيئاً
من حرية التصرف ؛ فإذا الأسرة بأنة بعد نعيم ، وشقية بعد سعادة ، وإذا هي
مغلولة الأيدي والأرجل والأعناق ، تحاول الخلاص فلا تجده ، وتتلمس طريق
الحرية فلا تهتدي إليه .

/ فقد توالى القروض التي اقترضتها ؛ ففي المدة الواقعة بين سنة ١٨٦٤
وسنة ١٨٧٥ كلفت الديون نحو خمسة وتسعين مليوناً من الجنيهاً ، فجاءت بعثة
كيف Cave سنة ١٨٧٥ لفحص مالية مصر ، واقترحت لضرورة إصلاحها
إنشاء مصلحة للرقابة على ماليتها ، وأن يخضع الخديو لمشورتها ، ولا يعقد قرصاً
إلا بموافقتها .

/ وأنشئ صندوق الدين سنة ١٨٧٦ يتسلم المبالغ المخصصة للديون من المصالح
المحلية ، فكانت حكومة أجنبية داخل الحكومة المصرية . وأنشئ نظام الرقابة
الثنائية في هذه السنة أيضاً ، وكان من مقتضاه أن يتولى الرقابة على المالية المصرية
مراقبان : أحدهما إنجليزي لمراقبة الإيرادات العامة للحكومة ، والآخر فرنسي
لمراقبة المصروفات ، وأنشئت لجنة مختلطة لإدارة السكك الحديدية وميناء
الإسكندرية . وجاءت لجنة تحقيق عليا أوربية سنة ١٨٧٨ لمراعاة مصالح الدائنين
الأجانب ، وتدير المال اللازم لوفاء الأقساط المطلوبة لهم .

/ وتطورت الرقابة الثنائية إلى تأليف وزارة مختلطة برئاسة نوبار باشا يدخلها
وزيران أوربيان أحدهما إنجليزي لوزارة المالية ، والآخر فرنسي لوزارة الأشغال .

ولا شك أن المال عصب الحياة ، فالمشرف عليه مشرف على كل شيء . فتوفير المال لأداء الديون يتطلب الإشراف على جميع الإدارات التي تُغَلِّ المال ، وهذه الإدارات تحصل المال من الفلاح ، وتقول إنه لا بد أن يكون آمناً على ماله ، مهياً له وسائل إصلاح زراعته ، يُعَامَلُ بالعدل في تحصيل الضرائب منه ، فلا بد من الإشراف على هذه الشؤون كلها من أجل المال . وهكذا مَنْ أشرف على المال أشرف على كل شيء .

كل هذا حدث مدة إقامة « جمال الدين » في مصر ، وكان من طبعه الانغماس في السياسة ، ونمى هذا الطبع فيه نشأته في بيت حكم ، وانغمسه فيها أيام تنازع الأسرة المالكة في الأفغان ، فكانت هذه الأحداث المصرية حافزة له على أن يعيد ما بدأ به من الاشتغال بالسياسة ، وحافزة للناس في مصر على أن يجاوبوا حركته .

* * *

كان نشاطه التعليمي ذا شعبتين : دروس عملية منظمة يلقها في بيته في « خان الخليلي » ، ودروس عملية يلقها بين زوّاره في بيته وفي بيوت العضاء حين يروم زيارتهم ، وفي « قهوة البوستة » بالقرب من « العتبة الخضراء » ، وحيثما كان في المجتمعات .

فأما دروسه في بيته ، فكان يلقها على طائفة من مجاورى الأزهر وبعض علمائه ، أمثال الشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الكريم سلمان ، والشيخ إبراهيم اللقاني ، والشيخ سعد زغلول ، والشيخ إبراهيم الهلباوى .

كان أكثر الكتب التي قرأها لهؤلاء وأمثالهم كتب منطق وفلسفة وتصوف وهيئة ، مثل كتاب الزوراء للدواني في التصوف ، وشرح القطب على الشمسية في المنطق ، والهداية ، والإشارات ، وحكمة العين ، وحكمة الإشراف

في الفلسفة ، وتذكيرة الطوسي في علم الهيئة القديمة ، وكتاب آخر في علم الهيئة الجديدة .

هي كتب فلسفة على نحو ما يتصور الفلاسفة القدماء وفي العصور الوسطى ؛ فكانوا يعدون المنطق مقدمة الفلسفة أو مدخلها ، ومن فروعها الإلهيات والطبيعة والفلك والطب وما إلى ذلك .

ويظهر لي أن هذه الكتب لم تكن لها قيمة في ذاتها ؛ فقد كان الشيخ حسن الطويل مثلاً يقرأ بعض هذه الكتب في الأزهر ولم يؤثر أثره ، إنما كانت قيمتها في أن كل فصل من فصولها ، أو جملة من جملها ، كان تُكأة يستند إليها الشيخ في شرح أفكاره وآرائه ، والتبسط في مناحي الفكر ، والتطبيق على الحياة الواقعة ، ونظراته إلى العالم كوحدة ، مازجاً التصوف بالفلسفة وبالهيئة وبغير ذلك . وهذا هو ما أقنع الشيخ محمد عبده من الشيخ وطمان نفسه إذ قال : إنه « بعد حضوره في الأزهر سنين ملّ الدروس المعتادة ، وصارت نفسه تطلب شيئاً جديداً ، وتميل إلى العلوم العقلية ؛ وكان الشيخ حسن الطويل ممتازاً في الأزهر بعلم المنطق ، فحضره عليه ولكن لم يكن يشفي ما في نفسه ، بل كانت تشوف^(١) دائماً إلى علم غير موجود وقرأ الشيخ حسن الطويل شيئاً من الفلسفة ، ولكن لم يكن يجزم بأن المعنى كذا ، بل كان درسه احتمالات ، حتى جاء السيد جمال الدين فوجد عنده طلبته وأقصى أمنيته ؛

فهذه الكتب التي قرأها إنما قيمتها في نفس جمال الدين ، والدنيا تتلون بلون منظار الرأي ، والطبيعة كلها مفتوحة أمام أعين الناس كلهم ، ولكن لا يفهمها إلا القليل .

ما هذا الشيء الجديد الذي وجدته « محمد عبده » عند « جمال الدين »

(١) تشوف : تتطلع .

فاطمان به واهتدت نفسه إليه؟ هو ما عند جمال الدين من أصول كُلية هي عماد الفلسفة، يرجع إليها في كل ما يقرأ من صفحات الكتب، وهي الحكم في صحة ما يُصح، وبطلان ما يُبطل، ثم شخصية قوية تجزم في الحكم ولا تتردد تردد الشيخ حسن الطويل، ثم ربط جزئيات الحياة العملية والعملية كلها برباط واحد يفتح النوافذ بعضها على بعض حتى تتألف منها وحدة؛ فالتصوف، والفلسفة، والدنيا العامة، ودنيا الشخص، هذه كلها لا يصح أن يكون كل منها حجرة مغلقة على نفسها، بل لا بد أن تتقابل وتتناغم، وتتألف دوراً موسيقياً واحداً، فإذا تم هذا صح نظر الإنسان وزال عنه كثير من الشك المؤلم والحيرة المضنية، وبت^(١) فيما ينفع وما يضر، وما يعمل وما يدع، ووضعت أمامه الأعلام، واستقنارت السبل؛ أما جملة تصح وجملة لا تصح، ومؤلف أخطأ ومؤلف أصاب، ومنطق في الكتاب ولا منطق في العمل، ونظرية في التصوف تنقضها نظرية في الحكمة، وأقوال في الزهد يسلم بها في حينها، وأقوال في الحث على الانغماس في الحياة يسلم بها في حينها أيضاً، فهذه كلها نظرة البدائيين الذين لا يستطيعون أن ينظروا إلا إلى السطح دون الأعماق، والأعراض دون الجوهر، والأشكال دون الحقيقة. وفوق هذا كله كان يأخذ بيد تلاميذه فيرفهم إلى مستوى يسيطرون فيه على الكتاب، ولا يستعبدون الكتاب، ويسمون عن قيود الألفاظ والجل إلى معرفة الحقيقة في ذاتها، ولو خالفت الألفاظ والجل.

وكانت طريقته في التدريس عكس طريقة الشيخ محمد عبده. كان جمال الدين يحدد موضوع الدرس فقط من الكتاب، ثم يُفيض في شرح الموضوع من عنده حتى يحيط به من جميع أطرافه، وبعد ذلك يقرأ نص الكتاب فإذا هو واضح ظاهر بين فيه موضع الخطأ والصواب. أما الشيخ محمد عبده، فكان

(١) بت: أمضى الحكم.

يقراً النص أولاً ويفهمه ويفهمه ، ثم يفيض في التعليق عليه وفي بسط الموضوع من عنده .

هذه هي مدرسته النظامية في بيته .

— ٢ —

أما مدرسته الثانية غير النظامية فكانت أكبر أثراً وأعمّ نفعاً ، وهي التي كان يتلقى عليه فيها زوّاره في بيته ، وعظاء الرجال عند زيارته لهم في بيوتهم ، وخاصةً المفكرين والمتقنين عند تحلقهم حوله في « قهوة البوسطة » ، وجمهور الناس عند اجتماعهم به في المناسبات .

في هذه المدرسة تلقى دروسه أمثال : محمود سامي البارودي ، وعبد السلام اللويلحي ، وأخيه إبراهيم اللويلحي ، ومن الشباب أمثال : محمد عبده ، وإبراهيم اللقاني ، وسعد زغلول ، وعلى مظهر ، وسليم نقاش ، وأديب إسحق ، وغيرهم .

وفي هذه المدرسة حوّل « السيد » مجرى الأدب ونقله من حال إلى حال . كان الأدب عبد الأرستقراطية ، لاهمّ له إلا مدح الملوك والأمراء ، والتعقّب بأفعالهم وصفاتهم مهما بلغ من ظلمهم ؛ فكل حاكم سيد الوجود في زمانه ، آت بالمعجزات في أعماله ، معصوم من الخطأ فيما يأتي به ؛ يبتزّ^(١) مال الناس غصباً ، فلا يُلام على ما غصب ، ولكن يُمدح على ما أنفق ؛ ويقتل من شاء فلا يُسأل عمّن قتل ولكن يُشاد بفضلّه إذا عفا . الفن والأدب والشعر والنثر موسيقى لطّربه ، وبهلوان لتسلّيته ، وعبيد مُسخّرة لنهش أعدائه ، ومدح أوليائه . الأديب الصغير مدّاح للغنيّ الصغير ، والأديب الكبير مدّاح للأمير الكبير — فأتى جمال الدين فسخر الأدب في خدمة الشعب ؛ يطالب بحقوقه ، ويدفع الظلم عنه ، ويهاجم من اعتدى عليه كأنما من كان ؛ يبين للناس سوء حالهم ومواضع بؤسهم ؛ ويبيصرهم بمن كان

(١) يبتز : يلب .

سبب فقرهم، ويحرضهم أن يخرجوا من الظلمات إلى النور، وألا يخشوا بأس الحاكم، فليست قوته إلا بهم، ولا غناه إلا منهم، وأن يلحوا في طلب حقوقهم المغصوبة، وسعادتهم السلوبة. فخرج على الناس بأدب جديد ينظر للشعب أكثر مما ينظر إلى الحاكم، وينشد الحرية، ويخلع العبودية، ويفيض في حقوق الناس وواجبات الحاكم، ويجعل من الأديب مشرفاً على الأمراء، لا سائلاً يمد يده للأغنياء. وهذه نفمة جديدة لم يعرفها المسلمون منذ عهد الاستبداد.

قال الشيخ محمد عبده في وصف حال مصر قبل مجيء (جمال الدين):
« إن أهالي مصر قبل سنة ١٢٩٣ هـ كانوا يرون شؤونهم العامة بل والخاصة ملكاً لحاكمهم الأعلى ومن يستنبيه عنه في تدير أمورهم، يتصرف فيها حسب إرادته؛ ويعتقدون أن سعادتهم وشقاؤهم موكولان إلى أمانته وعدله، أو خيائته وظلمه ولا يرى أحد منهم لنفسه رأياً يحق له أن يسيده في إدارة بلاده، أو إرادته يتقدم بها إلى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحاً لأتمته؛ ولا يملكون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم مصرفون فيما تكلفهم الحكومة به وتضربه عليهم. وكانوا في غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى سواء كانت إسلامية أو أوربية - ومع كثرة من ذهب منهم إلى أوروبا وتعلم فيها من عهد محمد علي باشا الكبير إلى ذلك التاريخ، وذهاب العدد الكثير منهم إلى ما جاورهم من البلاد الإسلامية أيام محمد علي باشا الكبير وإبراهيم باشا، لم يشعر الأهالي بشيء من ثمرات تلك الأسفار، ولا فوائد تلك المعارف. ومع أن إسماعيل أبدع مجلس الشورى في مصر سنة ١٢٨٣، وكان من حقه أن يعلم الأهالي أن لهم شأنًا في مصالح بلادهم، وأن لهم رأياً يُرجع إليه فيها، لم يحس أحد منهم ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن له ذلك الحق الذي يقيضه تشكيل هذه الهيئة الشورية، لأن مُبدع المجلس قيده في النظام وفي العمل، ولو حدث إنساناً فكره السليم بأن هناك

وجهة خير غير التي يوجهها إليها الحاكم لما أمكنه ذلك ؛ فإن بجانب كل لفظ نفيًا عن الوطن ، أو إزهاقًا للروح ، أو تجريدًا من المال .

كان الأدب ظلًا لهذا الموقف ، وصورة صادقة لهذا المنظر ؛ فأدياء مصر أمثال السيد على أبي النصر ، والشيخ على الليثي ، وعبد الله باشا فكرى ، تتصفح آثارهم ، فماذا ترى ؟ غزلاً فى حبيب ، أو رسالة إلى صديق ، أو مدحاً لأمير ، أو استعطافاً له ، أو اعتذاراً إليه ، أو وصف سفينة ، أو شكرًا على هدية . أما مصر وحالة شعبها ، وبؤس قومها ، وظلم حكامها ، وحقوق الناس ، وواجبات الحكومة ، فلا تعثر منها على شيء .

فلما جاء جمال الدين قلب هذا الوضع ، وفتح للناس منافذ للقول ، وسلك

في ذلك مسالك مختلفة :

١ - كَوّن جماعة من الكهول والشبان حبّب إليهم الكتابة ورسم لهم خطها ، وأوحى إليهم بالمعاني الجديدة التي يكتبونها ، وشجعهم على إنشاء الجرائد يكتب فيها ويستكتب منهم من تَوَسّم فيه المقدرة . مثال ذلك أنه شجع « أديب إسحق » - بعد أن اتصل به اتصالاً وثيقاً وتلمذ له طويلاً - على أن ينشئ جريدة اسمها « مصر » ، وكان جمال الدين يرسم له خطة السير فيها ، ويكتب بنفسه بعض مقالاتها باسم مستعار هو « مظهر بن وضاح » ، ثم أوعز إليه بالانتقال إلى الإسكندرية ، وأنشأ بها صحيفة يومية اسمها « التجارة » ، وكان جمال الدين يستكتب لهاتين الصحيفتين الشيخ محمد عبده ، وإبراهيم اللقاني ، وأمثالهما ؛ هذا إلى ما يكتبه جمال الدين بنفسه . وكان مما كتبه مقالان أحدهما فى الحكومات الشرقية وأنواعها ، والثانى سماه « روح البيان فى الإنجليز والأفغان » كان لها صدى بعيد . ولقيت الصحيفتان رواجاً كبيراً ، ولقيت إليهما الأنظار بروحهما الجديد ، ثم أغلقهما (رياض باشا) .

وكذلك فعل في توجيه الكتاب إلى الكتابة في الوقائع المصرية وأمثالها ، فربى بذلك طائفة من الكتاب تحسن الكتابة ، وتحسن اختيار الموضوعات التي تمس حياة الأمة في صميمها . فيكتب (أديب إسحق) — مثلا — تحت عنوان : « أوروبا والشرق » ؛ « قضي على الشرق أن يهبط بعد الارتفاع ، ويذل بعد الامتناع ، ويكون هدفاً لسهام المطامع والمطالب ، تعبت به أيدي الأجانب من كل جانب ... » الخ .

ويقول الشيخ محمد عبده : « إن الحاكم — وإن وجبت طاعته — هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ؛ ولا يردّه عن خطئه ، ولا يقف طغيان شهوته ، إلا نصح الأمة له بالقول والفعل » .

ويتصل به الكاتب الإسرائيلي الفكاهة « يعقوب صنوع » فينشئ مجلة هزلية اسمها « أبو نضارة » ينتقد فيها سياسة إسماعيل باشا . كل هذا كان القواة الأولى في الشرق للصحافة الشرقية والكتاب الذين يعالجون شؤون الوطن وحالة الشعوب .

وفي الحق إن الظروف التي أحاطت بجمال الدين كانت مساعدة على ذلك ؛ فالحال في مصر هي كما وصفنا من قبل ، والنفوس جزعة من المراقبة الثنائية ونحوها ؛ وإسماعيل نفسه يشجع نقد التدخل الأجنبي وإن لم يشجع نقد شخصيته ، فكان يسره مقالات أمثال « الوقائع المصرية » و « مصر » و « التجارة » ولا يسره أمثال « أبو نضارة » ؛ فكان الأمر أن البلاد أصبحت مستودع (بنزين) وجمال الدين (عود ثقاب) ، فلما أشعله اشتعلت البلاد ؛ ولولا هذه الظروف لخابت دعوته في مصر كما خابت في فارس والآستانة .

٢ — ومسلك آخر سلكه جمال الدين في مدرسته الشعبية ، وهو أحاديثه التي كان ينثرها هنا وهناك في المقهى ، وفي المحافل ، وفي بيوت الزيارة . وكان

رحمه الله قليل الاحتفال بالأكل ، قليل النوم ، كثير السر قوى الشهوة للكلام
تواتيه المعاني ويطاوعه اللسان ، فكان يجد مادة للكلام في كل شيء : في
«السجارة» يشعلها ، وفي أى منظر يراه ، وفي الطفل يسأله فيجيب أو لا يجيب ،
وفي حادثة زواج أو حادثة طلاق . وهكذا يستطيع أن يخلق أمتع الحديث من
الشيء العظيم والشيء التافه ومن لا شيء . وكانت مصر - بحمد الله تعالى -
بالأحداث في هذا الزمان ، فكانت تغنيه أحداثها العظام عن خلق الأحاديث
المرتبلة ، وكان له القدرة على أن يلهب مستمعه ، فلا يزال يروح على الفحم حتى
يلهبه ، فإذا جلسه يرى بعد الجلسة راحته في السير لا في الركوب ، وفي العمل
لا في السكون ، كأنه يريد أن يجاوب جسمه قلبه ، ويُناغم^(١) عمله نفسه .
وكان له مذهب في الكلام يتفق وشهوته ؛ وهو أن يحدث من يفهم ومن
لا يفهم ، ومن يستمدّ ومن لا يستمدّ ، كالسحاب ينزل الفيث فتنفع به الأرض
الصالحة وتسوء به الأرض الفاسدة ، ولا عيب على السحاب . يقول الشيخ محمد
عبده في هذا : « كان السيد جمال الدين يلقي الحكمة لمريدها وغير مريدها ،
ومن خواصه أنه يجذب مخاطبه إلى ما يريد ، وإن لم يكن من أهله ، وكنت
أحسده على ذلك ، لأننى تؤثر فى حالة المجلس والوقت ، فلا تتوجه نفسى للكلام
إلا إذا رأيت له محلاً قابلاً واستعداداً ظاهراً » .

وهذا هو السرفى وجود مدرسة في مصر عجيبية تحسن السمر والحديث ،
وتشقيق الكلام وحسن الاستطراد ، وتأخذ على السامع لُبّه ، من أمثال محمد
عبده ، وسعد زغلول ، والهلباوى ، ولطفى السيد ، وكلهم من تلاميذه في هذا الباب .
قال سليم بك العنحورى : « كان من ديدن^(٢) « جمال الدين » أن يقطع

(١) يناغمه : أى يساوقه فى نعمته .

(٢) الديدن : العادة .

بياض نهاره في داره حتى إذا جنَّ الظلام خرج متوكئاً على عصاه إلى مُقَهَى
قرب الأزبكية ، وجلس في صدر فته تتألف حوله على هيئة نصف دائرة ، ينتظم
في سمطها ^(١) اللغوي والشاعر والمنطقي والطبيب والكجاري والتاريخي والجغرافي
والمهندس والطبيعي ، فيتسابقون إلى إلقاء أدق المسائل عليه ، وبسط أعوص
الأحاجي ^(٢) لديه ، فيحل عقد إشكالها فردا فردا ، ويفتح أغلاق ^(٣) طلاسمها
ورموزها واحداً واحداً ، بلسان عربي مبين لا يتلعم ولا يتردد بل يتدفق كالسيل
من قريحة لا تعرف الكلال ، فيدهش السامعين ، ويفرح السائلين ، ويؤمكم
المعترضين ، ولا يبرح هذا شأنه حتى يشتعل رأس الليل شيباً . . . فيقل إلى داره
بعد أن ينتقد صاحب المقهى كل ما يترتب له في ذمة الداخلين في عداد ذلك الجمع
الأنيق . . .

ويقول في موضع آخر : « إنه في خلال سنة ١٨٧٨ ، زاد مركزه خطراً لأنه
تدخل في السياسة ، وأخذ يقرب منه العوام ، ويقول لهم في أثناء كلامه
ما معناه : « إنكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستبداد ، ورُبيتُم في حجر
الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم ، وأتم تحملون
عبء نير ^(٤) الفاتحين ، وتعنون ^(٥) لوطاة الغزاة الظالمين . تسومكم حكوماتكم
الحيف والجور ، وتُنزل بكم الخسف والذل ، وأتم صابرون بل راضون ، وتستنزف
قوام حياتكم — التي تجمت بما يتحلب من عرق جباهكم — بالعصا والمقرعة
والسوط ، وأتم صامتون . فلو كان في عروقكم دم فيه كُرِيَّات حيوية ، وفي
رءوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيتُم بهذا الذل وهذه المسكنة . . .
تناوبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ، ثم العرب والآكراد

(١) السمط : القند . (٢) الأحاجي : الألغاز . (٣) الأغلاق : الأقفال .

(٤) النير : خشبة توضع على عنق الثورين يقرنان بها ويساقان .

(٥) تعنون : تخضعون .

والماليك إلخ؛ وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه، وأنتم كالصخرة الملقاة في القلاء؛
لا حسن لكم ولا صوت

انظروا أهرام مصر، وهياكل منفيس، وآثار طيبة، ومشاهد سيوه،
وحصون دمياط، فهي شهادة بمنعة آبائكم، وعزة أجدادكم.

هَبُوا من غفلتكم! اصحوا من سكرتكم! عيشوا كباقي الأمم أحراراً سعداء!
ومنذ ذلك الحين طارت شرارة الثورة العرابية.

بهذا انقلب « الشيخ » من معلم في حجرة إلى معلم أمة: يخاطب العامة
والخاصة، ورجل الشارع والمترجم في دسنت الوزارة.

ومن تمام برّناججه في هذا الباب أن انضم إلى الحفل الماسوني الإسكتلندي
لأنه يضم كثيراً من عليّة القوم، لعله بذلك يتمكن من إيصال أفكاره إليهم،
ويضم طائفة من المصريين والأجانب، فلعل حرية القول فيه تكون أتم؛ ولكن
ما دخل « السيد » فيه حتى ثارت ثائرتة، وأخذ يهاجمه في تصرفه وينقده بخطبه
المتوالية. غاظه من الحفل أنه وجد أعضائه لا يحبون أن يتكلموا في السياسة فقال:
« أول ما شوقني للعمل في « بناية الأحرار » عنوان كبير خطير: حرية -
مساواة - إخاء، وأن غرضها « منفعة الإنسان - سعى وراء ذلك صروح
الظلم - تشييد معالم العدل المطلق »، ولكن كنت أنتظر أن أسمع وأرى
في مصر كل غريبة وعجيبة، ولكن ما كنت لأتخيل أن الجبن يمكنه أن يدخل
من بين أسطواناتي المحافل الماسونية!

إذا لم تتدخل للماسونية في سياسة الكون، وفيها كل بناء حر؛ وإذا كانت
آلات البناء التي بيدها لا تستعمل لهدم القديم وتشييد معالم حرية صحيحة وإخاء
ومساواة؛ وإذا كانت لا تدك صروح الظلم والعتو والجور؛ فلا حملت يد الأحرار
مطرقة، ولا قامت لبنائتهم زاوية قائمة.

وهكذا نقدها في عدم تدخلها في السياسة ، وتنازع أعضائها على الرياسة ،
ورغبتهم في إغماض أعينهم على ما يقع على الأمة من ظلم .
وأخيراً استقلال من هذا المحفل ، وأنشأ محفلاً آخر تابعاً للشرق الفرنسي ؛
وسرعان ما بلغ أعضاؤه أكثر من ثلثمائة عضو من نخبة المفكرين والناهضين
المصريين ، وكان في هذا المحفل مطلق الحرية ، نظم شعبه للأعمال المختلفة ؛
فشعبة للحقانية ، وأخرى للمالية ، وثالثة للأشغال ، ورابعة للجهادية . وهكذا
لكل وزارة ومصلحة شعبية ، تدرس كل شعبة شؤون وزارتها أو مصلحتها ،
وتعرف ما يقع من الظلم ووجوه الإصلاح فيها ، ثم كل شعبة تتصل بالوزير
المختص وتبلغه رغباتها في أسلوب حازم صريح . فكان لذلك هزة في الأندية
والمجتمعات (١) .

وهكذا اتسعت دائرة نفوذه وأعماله ، فقد بدأ يدرس في حجرة ، ثم أخذ
يسيطر على عقول مستمعيه في «قهوة» ، ثم ما هو ذا يريد أن يسيطر على الوزارات
ومصالح الحكومة بمحفله . وكان يدرس في بيته كتب الفلسفة والحكمة ، فإذا به
في مجتمعاته ومنتدياته يشرح حالة الأمة الاجتماعية ، ويبين حقوقها وواجباتها ،
ثم إذا به آخر الأمر يضع يده في صميم الحياة السياسية .

خليفة فيه ظهرت منذ كان شاباً يلعب دوره في نصرة أمير على أمير في ولاية
الأفغان ، لا يقنع حتى يتزعم ، ولا يهدأ حتى يضع يده على الأزرار التي تصرف
الأموار ، ولكنها أزرار مشحونة بالكهرباء مثيرة للاضطراب ، هو لا يعبأ بها
ولكنها على رغمه تنال منه .

ماذا كان يريد السيد جمال الدين في مصر ؟

يريد في درسه النظامي توسيع عقول الطلبة ، وفتح آفاق جديدة في فهم

(١) خاطرات جمال الدين محمد باشا الخزومي .

العالم ، وتعليم الحرية في البحث ، وإيجاد شخصيات من الطلبة تبحث وتنقد وتحكم ؛ خالفت النص أو واقفته ، خالفت للمروف المؤلف أو واقفته .

ويريد في درسه العام أن يتحرر الشعب من العبودية للحكام ، ويفهموا موقفهم من الحاكم ، وموقف الحاكم منهم : كل يعرف حدوده ويؤدي واجبه ، فإذا تعدى الحاكم هذه الحدود قال له الشعب : « لا » بملء فيه — يريد تكوين رأى عام واسع الثقافة قوى حازم ، يفهم الأمور الداخلية والخارجية ، ويكون لكل ما يعرض من الحوادث العظام رأياً يقنعه ثم يفرضه على أولى الأمر حتى لا يتلاعبوا به ، يفهم أن من حقه أن يعيش عيشة صالحة ينعم بدخله وله غلة جهده ، فإذا أخذت الحكومة منه الضرائب فعلى قدر ما تستدعيه المصالح العامة لا الشهوات الشخصية، ولذلك كان من حقه الإشراف على وجوه الدخل والخروج .

ويريد في السياسة أن يقتنع الشعب بحقه في الحكم ؛ فإذا فهم ذلك — وهذا ما عمله جمال الدين وصحبه — طالب بالمجلس النيابي ، فيعطاه بناء على فهمه وطلبه وقدرته لا على أنه منحة تمنح له ، فإذا أعطيه بجهدته كان أجدر بالمحافظة عليه ، وحرص عليه حرصه على دمه ، فاستقر وثبت ، ولم تستطع سلطنة ما أن تلغيه أو تهمله .

استدعاه الخديو توفيق باشا إلى قصر عابدين وقال له : « إني أحب كل خير للمصريين ، ويسرنى أن أرى بلادي وأبناءها في أعلى درجات الرقي والفلاح ؛ ولكن مع الأسف إن أكثر الشعب حامل جاهل ، لا يصلح أن يُلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة ، فيلقون أنفسهم والبلاد في تهلكة » .

فأجاب جمال الدين : « ليسمح لي سمو أمير البلاد أن أقول بجرية وإخلاص . إن الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفرادها ، ولكنه غير محروم من وجود العالم والمائل ، فبالنظر الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى ينظر إليكم ، وإن قبلتم نصيح هذا الخالص ، وأسرعتم فى إشراك

الأمة في حكم البلاد عن طريق الشورى ، فتأمرون بإجراء انتخابات نواب عن الأمة تُسنّ القوانين وتنفذها باسمكم وإرادتكم ، يكون ذلك أثبت لمرشكم وأدوم لسلطانكم » (١) ثم خرج من عنده بخطب في هذا الموضوع ، ويستحث تلاميذه وأعوانه على الكتابة فيه في حماسة وقوة .

لقد رأينا أول عهده في مصر يرى أن مجلس النواب لا قيمة له ما دام المصريون على ما هم عليه من قلة التنبه ، وضعف اليقظة ، وقلة الشجاعة ، ثم رأينا آخر عهده يلح في طلب الحكم النيابي ويحرّض عليه . فلعله رأى من الأحداث واستبداد الحكام ، ونضج الأمة في السنين الثماني ما غير رأيه وعدّل خطته .

لقد كان الأمير توفيق في آخر أيام إسماعيل باشا يقدره ويدين بمبادئه ، وكان السيد يلتقي به في الحفل الماسوني ، ويتوسّم فيه الخير إذا ولي بعد إسماعيل ، ولكن الخديو توفيق لما تولى الحكم سعى إليه الساعون ، ودس له الدساسون ، فاجتمع مجلس الوزراء وقررنى السيد جمال الدين « لأنه رئيس جمعية ضرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا » ، فثلث لنا من جديد رواية سقراط ، وقبض عليه وعلى خادمه الأمين الفيلسوف أبي تراب في ٦ رمضان سنة ١٢٩٦ ، ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧١ ، وأودعا باخرة سارت بهما إلى بمباى . وكان هذا آخر العهد بالأستاذ في مصر ، وإن لم يكن آخر عهدها بأرائه ومبادئه .

أقام السيد في حيدر اباد في الهند منفيًا لا يُسمح له بمفارقتها ، ولا يستطيع أن يشترك في عمل إلا حديثًا مع زائر ، أو قراءة في كتاب ، أو ردًا على سؤال . وفي هذه المدة ألف كتابه المشهور في « الرد على الدهريين » وعنوانه « رسالة

(١) خاطرات جمال الدين .

في إبطال مذهب الدهريين ، وبيان مفاسدهم ، وإثبات أن الدين أساس المدنية والكفر فساد العمران » . وقد كتبها بالفارسية ثم ترجمت إلى الأردية ، ثم ترجمها الشيخ محمد عبده بمعاونة عارف بالفارسية وهو تابع السيد جمال الدين ، عارف أبو تراب .

ردّ في هذه الرسالة على « داروين » ومذهبه في النشوء والارتقاء ، وعلى أمثاله ممن ذهبوا مذهبه .

وقد يجيب القارئ من تعرضه لمثل هذا البحث ، وهو يتطلب — كما فعل « داروين » — تخصصاً في العلوم الطبيعية من جيولوجيا وفسولوجيا وبيولوجيا وأمبيولوجيا (علم تكوين الأجنة) وغير ذلك ولكن عذر السيد أن مذهب « داروين » قد أثار موجة من الإلحاد قوية — وإن لم يكن داروين نفسه ملحداً — وطفاً في عصره مذهب المادية القائل بأن العالم له أساس واحد هو المادة ، ولا شيء وراءها ، وكل شيء في الحياة مظهر من مظاهرها حتى الفكر والماطفة ؛ والمادة لا تتجدد ولا تفتى ، وقوانينها أبدية لا تتغير ، وهي قديمة أزلية أبدية ، وليس في هذا العالم شيء يعتريه الفناء ، وإنما تتغير الأشكال ؛ وبناء على ذلك فلا نفس ، ولا روح ، ولا دين ، ولا إله .

وهذا المذهب قديم تراه في البوذية ، وعند قدماء المصريين وعند بعض فلاسفة اليونان ، وظهر في العصور الحديثة في الثورة الفرنسية ؛ ودعا إليه كثير من الفلاسفة في إنجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا ؛ وعرفه العرب قديماً وسماوا أصحابه « الدهريين » وحكى مذهبهم الجاحظ والشهرستاني وغيرها من مؤرخي المذاهب .

وبانتقال الآراء الغربية إلى الشرق انتقل مذهب النشوء والارتقاء ،

ومذهب الساديين ؛ فترجم في مصر « شجلى شمبل » مذهب بجنرسنة ١٨٨٤ ،
وأثار حركة كبيرة حوله . وفي الهند ظهرت طائفة تعتنق هذا المذهب وتسمى طائفة
« النيتشرية » نسبة إلى نيتشر Nature (وهي كلمة إنجليزية معناها الطبيعة)
وترددت هذه الكلمة وقرعت أسماع الكثيرين ، كما قرعت سمع جمال الدين
أيام إقامته في حيدرآباد ، وسأله الأستاذ محمد واصل مدرس الفنون الرياضية
بمدرسة الأعزة بمحيدرآباد في كتاب يقول فيه : « يقرع سمعنا في هذه الأيام صوت
« نيتشر » ، ويصل إلينا من جميع الأقطار الهندية ، ولا تخلو بلدة من جماعة
يلقبون بهذا اللقب « نيتشرى » فما حقيقة النيتشرية وما مذهبهم ، وفي أى وقت
ظهروا ؟ » . فكان من ذلك تأليف هذه الرسالة .

ولكن ليس أقوم ما فيها الرد على داروين ، وإنما أقوم ما فيها إثبات قيمة
الدين ، وضرورته للإنسان ، وأثره في رقيه ، وأثر الإلحاد في انحطاطه . وهذا هو
ما يبلغ فيه جمال الدين الذروة .

وخلاصة رأيه في هذا الموضوع أن الدين — على العموم — أكسب عقول
البشر ثلاث عقائد ، وأودع نفوسهم ثلاث خصال ، كل منها ركن لوجود الأمم .
وعماد لبناء الهيئة الاجتماعية .

العقيدة الأولى التصديق بأن الإنسان ملك أرضى وأنه أشرف المخلوقات ؛
والعقيدة الثانية يقين كل ذى دين أن أمته أشرف الأمم ، وكل مخالف له فعلى
ضلال وباطل ؛ والثالثة جزمه بأن الإنسان ورد هذه الدنيا لتحصيل كمال يهبثه
للمروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوى ، والانتقال من دار ضيقة
الساحات ، كثيرة المكروهات ، جديرة بأن تسمى « بيت الأحزان » إلى دار
فسيحة الساحات ، خالية من المؤلمات ، لاتنقض سعادتها ، ولا تنتهى مدتها .
أما الخصال الثلاث فهي : الحياء والأمانة والصدق .

ويشرح أن هذه الأسس التي أتت بها الأديان هي علة العمران، وعليها تتوقف سعادة الإنسان، وأن للماديين أو الدهريين أو النيتشرين تؤدي تماليمهم إلى إنكار هذه الأسس فتنزل الإنسان منزلة الحيوان، وتفقده الباعث على الخير، وتُعدّه لحياة جامدة ضيقة جافة لا قلب لها، ولا سمو فيها، وفي هذا انتكاس^(١) نخلقه، وهدم لكيانه، وحرمان مما أعده الله له.

وفي الإسلام مزايا على سائر الأديان «أو لها: صقل العقول بصقال التوحيد، وتطهّرها من لوث^(٢) الأوهام. فمن أهم أصوله الاعتقاد بأن الله منفرد بتصرف الأكوان متوحد في خلق الأفعال، وأن من الواجب طرح كل ظن في إنسان أو جماد — علويًا كان أو سفليًا — يكون له في الكون أثر من نفع أو ضرر، أو إعطاء أو منع، أو إعزاز أو إذلال...؛ أو نحو ذلك من خرافات كل واحدة منها كافية في إعماء العقول وطمس أنوارها.

وثانيها: أن الإسلام فتح أبواب الشرف للأُنفس كلها، وأثبت لكل نفس الحق في السمو... ومحق امتياز الأجناس، وتفاضل الأصناف؛ وقوم الناس بالكمال العقلي والنفسي؛ فالناس إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة لا بأى شيء آخر. وقد لا نجد من الأديان الأخرى ما يجمع أطراف هذه القاعدة.

وثالثها: أن الإسلام يكاد يكون منفرداً بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل، وتوبيخ المتبعين للظنون... فهو كلما خاطب، خاطب العقل، وكلما احتكم، احتكم إلى العقل؛ تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة. وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة وإهمال العقل، وانطفاء نور البصيرة.

ورابعها: أن الإسلام أوجب تعليم سائر الأمة وتنوير عقولها بالمعارف والعلوم،

(١) انتكاس: انقلاب.

(٢) اللوث: الشوب والتلوث.

وفرض نصب المعلم ليؤدي عمل التعليم ، وإقامة المؤدب الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر فقال : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وقال : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » .

وعلى هذه الأركان الأربعة بُني الإسلام ، وكل ركن منها له الأثر البالغ في تقويم المدنية وتشبيد بناء النظام ، وتدعيم السعادة الإنسانية ؛ وقد دارت حالة المسلمين رقياً وانحطاطاً على حسب تمسكهم بهذه العناصر وتخليهم عنها .

هذا ما عمله « جمال الدين » في حيدر اباد .

فلما حدثت في مصر « الثورة العرابية » نقلته حكومة الهند من حيدر اباد إلى كلكتا ، وألزمته الإقامة فيها مخفوراً مراقباً حتى انتهت الثورة بدخول إنجلترا مصر ، فأبيح له الذهاب حيث شاء (في غير الشرق) ، فيذكر مستر « بلنت » Blant أنه ذهب إلى أمريكا ليتجنس بالجنسية الأمريكية ، وأقام بها أشهراً ولم ينفذ ما اعتزمه — ولم يذكر ذلك غير بلنت من مترجميه^(١) .

ثم رأيناه في لندن سنة ١٨٨٣ ولم يطل الإقامة بها ، ثم سافر منها إلى باريس ، وكان قد كتب إلى تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده ، ليوافيه بها من منفاه في بيروت ، ففعل .

ما برنأجه ؟ ماذا ينوي من العمل بعد ما جرب ، و بعد ما نال من الأحقاد

ونالت منه ؟

(١) وأنا أستبعد رواية مستر « بلنت » لأن للسيد لما خرج من الهند سافر بجرأ من طرأ البحر الأحمر ، فلما كان في بور سعيد كتب إلى الشيخ محمد عبده كتاباً لا تزال محفوظة صور الفوتوغرافية يقول فيه : « أنا الآن في « برط السعيد » أذهب إلى لندرة . . . لأن أخبر العالم كانت قد انقطعت عن مدة سبعة أشهر ، ولما لا أدري مستر العارف (وهو تابعه) أخبره بسفري » .

ها هو ذا والشيخ محمد عبده يتشاوران فيما يصنعانه من الإصلاح .
فأما الشيخ محمد عبده فكاد يدب إليه اليأس من الجيل الحاضر ، بعد أن
خبر الناس في حوادث عراقى وغدرهم ، وقلة وفائهم ، وتكالبهم على مصالحهم
الشخصية ، فأشار على السيد جمال الدين أن يذهب إلى مكان بعيد غير خاضع
لسلطان دولة ترقل سيرها ، ثم ينشئان فيه مدرسة للزعماء يختاران لها التلاميذ
من نجباء الناشئين من الأقطار الإسلامية ، ومن يتوسَّمان فيهم الخير ، ثم يريانهم
على منهج قويم يختارانه ، ويُمدِّانهم للزعامة والإصلاح ، قال : « فلا تمضى
عشر سنين حتى يكون عندنا كذا وكذا من التلاميذ الذين يتبعوننا في ترك
أوطانهم ، والسير في الأرض لنشر الإصلاح المطلوب فينتشر أحسن انتشار » .
لم يعجب « السيد » هذا رأى ، ورأى فيه خوراً في العزيمة ، وجنوحاً إلى
السلامة ، ومبالغة في التشاؤم من الحاضر ، وقال الشيخ محمد عبده : « إنما أنت
مُتَبَطِّطٌ »^(١) ووضع « السيد » خطته ، وهى إنشاء جريدة عربية فى باريس ، تُنشر
منها فى العالم الإسلامى ، تفهمه حقوقه وواجباته وتشمل وطنيته ؛ فكان ذلك .
وكان من هذا جريدة « العروة الوثقى » يكون « للسيد » فيها الأفكار والمعانى ،
وللشيخ محمد عبده التحرير والصياغة ، وميرزا محمد باقر يعرب لها عن الصحف
الأجنبية كل ما يهم العالم الشرقى ، وكان وراء هذه المجلة جمعية سرية منبثة فى
جميع الأقطار الإسلامية ، اختير أعضاؤها من بين المسلمين المثقفين المتحمسين
لدينهم . ووضع لها يمين يقسمها من يدخل فيها ويتعهد « بأن يبذل ما فى
وسعه لإحياء الأخوة الإسلامية ، وإنزالها منزل البنوة والأبوة الصحيحتين ،
وأن لا يقدم إلا ما قدمه الدين ، وأن لا يؤخر إلا ما أخره الدين ، ولا يسعى قدماً

(١) ولعل هذه الفكرة هى التى أوحى للسيد محمد رشيد فيما بعد بإنشاء مدرسة الدعوة

والإرشاد فى مصر .

واحدة يتوهم فيها ضرراً يعود على الدين جزئياً كان أو كلياً ، وأن يطلب الوسائل لتقوية الإسلام عقلاً وقدرة ، وأن يوسع معرفته بالعالم الإسلامى من كل نواحيه بقدر ما يستطيع « الخ . وأنشئت للجمعية فروع فى البلدان المختلفة ، وكل فرع يجتمع المذاكرة ، وفى آخر كل اجتماع يتبرع الأعضاء بشئ من المال فى صندوق صغير له ثقب ضيق يضع فيه كل ما تيسر خفية ، حتى لا يعلم من أدى أقل ومن أدى أكثر - ولعل هذا الباب هو ما كان ينفق منه على الجريدة والتأمين بها ، فقد كانت ترسل أكثر أعدادها بالجان .

أصدرا من الجريدة ثمانية عشر عدداً فى ثمانية أشهر ، ظهر العدد الأول منها فى ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١ = ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ ، وظهر العدد الأخير فى ٢٦ ذى الحجة سنة ١٣٠١ = ١٧ أكتوبر سنة ١٨٨٤ .

ماذا كان الغرض من هذه الجريدة ؟

لخصت الجريدة أهم أغراضها أول عدد من أعدادها فيما يأتى :

- (١) بيان الواجبات على الشرقيين التى كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك ما فات .
- ويستتبع ذلك بيان أصول الأسباب ومناشئ العلل التى أفسدت حالهم ، وعمت عليهم طريقهم . وإزاحة الغطاء عن الأوهام التى حلت بهم .
- (٢) إشراب النفوس عقيدة الأمل فى النجاح ، وإزالة ما حل بها من اليأس .
- (٣) دعوتهم إلى التمسك بالأصول التى كان عليها آباؤهم وأسلافهم ، وهى ما تمسكت به الدول الأجنبية العريضة الجانب .
- (٤) الدفاع عما يرمى به الشرقيون عموماً والمسلمون خصوصاً من التهم ، وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون فى المدنية ما داموا متمسكين بأصول دينهم .

(٥) إخبار الشرقيين بما يهمهم من حوادث السياسة العامة والخاصة .
(٦) تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية ، وتمكين الألفة بين أفرادها ،
وتأمين المنافع المشتركة بينها ، ومناصرة السياسة الخارجية التي لا تميل إلى الحيف
والإجحاف بحق الشرقيين .

أراد السيد أن يدعو إلى إصلاح المسلمين دينياً واجتماعياً وسياسياً . وإذا كان
الإسلام تمزج فيه العقائد بالنظم الاجتماعية والنظم السياسية كانت دعوته شاملة
لهذه المناحي الثلاثة .

كان المثل الأعلى له حالة المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين ، من حيث العقيدة
والصفات الخلقية والنظام السياسي .

فيري أنهم كانوا موحدين حقاً ، معتزين بدينهم ، لا تفرقهم المذاهب والنحل ،
مترابطين برباط الأخوة ، فيهم خلق الإباء والشهم ، يبذلون أعز شيء في سبيل
عقيدتهم وعزتهم ، ينشرون بينهم العلم ما استطاعوا ، ويأمرون بالمعروف وينهون
عن المنكر في غير هوادة .

ثم دخل الفساد على توالي الزمن من خمسة أبواب : من عقيدة الجبر والخطأ
في فهم القضاء والقدر حتى صرفت النفوس عن الجد في الأعمال ؛ ومما أدخله
الزنادقة على تعاليم الإسلام في القرنين الثالث والرابع ، فجعلوا المسلمين شيعاً
وأحزاباً ، وأضعفوا قوة الدين بما أدخلوا من تعاليم فاسدة ؛ ومما أحدثه
السوفسطائية من أفكار ، وعدم الحقائق خيالات تبدو للنظر ، ومما عمله كذبة
المحدثين من وضع أحاديث ينسبونها إلى رسول الله وفيها السم القاتل لروح العمل
والإباء ، وفيها ما يستوجب ضعفاً في الهمم ، وفتوراً في العزائم ؛ ومن ضعف
التربية والتقصير في إرشاد الجمهور إلى أصول دينهم ، ونشر العلم بينهم / وزاد في
بعض المقالات أسباباً أخرى أهمها تفكك الروابط بين أجزاء الأمة ، فلا ترابط

بين العلماء بعضهم وبعض ، ولا بين العلماء والأمرء ، ومنها أن الدين الإسلامي جعل أمته أمة مجاهدة قوية محاربة ، يأمرها الله بقوله : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » فلما استهانت بهذا الأمر ، ولم تُعدِّ لكل موقف عدته ، ذلت بعد عزة ووضعت بعد قوة .

وكان يختار بعض هذه الأسباب ويوسعها تفصيلاً ، أو يفردا في مقال ، كما فعل في مقال القضاء والقدر . وكان من عادته أن يلهب النفوس بأسواط التقريع ثم يدخل الأمل عليها بأن هذه عوارض يمكن أن تزول ما سلم الأصل ، مذكراً دائماً بحالة المسلمين في العهد الأول ، وعزتهم الأولى .

وكان مثله الأعلى كذلك حكومة إسلامية واحدة تأتمُّ بالإسلام وتعاليمه ، ولما رأى أن ليس في الإمكان خضوعها لأمير واحد اكتفى بالدعوة إلى أن ترتبط أجزاؤها بروابط محكمة ، ويكون لها مقصد واحد ، وتحكم الأقطار كلها بحكومات إمامها القرآن ، وأساسها العدل والشورى ، واختيار خير الناس لتولى الأمور . يقول في ذلك بعد أن دعا إلى اتفاق الأمم الإسلامية : « لا أتمس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً ، فإن هذا ربما يكون عسيراً ، ولكنني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذي ملك على إملكه يسعى بمجده لحفظ الآخرين ما استطاع ، فإن حياته بحياتهم وبقائه ببقائهم » .
وكثيراً ما كان يضرب المثل بالإمارات الجرمانية في توحيدها بعد تشتتها ، ويدعو إلى حلف بين الدول الإسلامية يتزعمه أكبرها وأقواها .

وخشى أن هذا النظام الذي يدعو إليه يثير الشقاق بين المسلمين وغيرهم من أهل الديانات الأخرى في الأقطار الإسلامية ، فقال : « لا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه — بتخصيصها للمسلمين بالذكر أحياناً ومدافعتها عن حقوقهم — تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم في أوطانهم ، ويتفق معهم في مصالح

بلادهم ، ويشاركهم في المنافع من أجيال طويلة ؛ فليس هذا من شأننا ، ولا مما ندعو إليه ، ولا مما يبيحه ديننا ، ولا تسمح به شريعتنا الخ » .

وقاده هذا التفكير في نوع الحكومة التي يأملها ، والأخلاق التي يريها من العزة والشم والقوة ، أن يناهض — في الجريدة — الاحتلال الأجنبي في الأقطار الإسلامية — وخاصة في مصر — بكل قوته ، ويؤلّب عليه في غير هواة . وقد شغل هذا أكبر جزء من الجريدة ، من كتابة مقالات ورواية أخبار وتطبيق عليها ، واستعمل لهذا الغرض أشد أنواع التعبير ، وأعنف أساليب التهيج ، واستغل حوادث المهدي في السودان لإثارة الشعور وإهاجة النفوس .

واستعمل إلى جانب الجريدة رُسلًا متخفّين يذهبون إلى الأقطار المختلفة مزودين بالتعاليم التي لا يستطيع نشرها في الجريدة ، فرسول إلى موسكو ، ورسول إلى الحجاز ، حتى أرسل الشيخ محمد عبده مرة — وهو محكوم عليه بالنفي — إلى مصر وتونس .

كان من نتيجة ذلك أن أحس من بيده السيادة على الحكومات الهندية والمصرية الخطر من الجريدة ، فأمر بمنعها من الدخول ، وأصدرت وزارة نوبار باشا قراراً بالتشدد في منعها .

فلما أحست الجريدة شدة المراقبة ، واستحالة وصول الأعداد إلى أصحابها إلا في القليل النادر ، وفي كثير من التحايل ، احتجبت .

احتجبت والأسى يَحزُّ في نفس القاصدين عليها ؛ فلا من دعوم لبوا الدعوة فثاروا يطلبون أن يكون أمرهم بيدهم ، ولا الجريدة استطاعت أن تستمر في دعوتها حتى تؤدي رسالتها .

وبهذا انتهت مرحلة أخرى من حياة « السيد » مدتها ثلاث سنين قضائها

في باريس ، كلها غناء ، وكلها جهاد ، انتهت بما أحرزته وخيب أمله ، وإن كانت المغانى لا تنعدم كما أن المادة لا تنعدم .

— ٤ —

حادثان هامان حدثا في السنين الثلاث التي كان فيها « السيد » في باريس ، أحدهما اتصاله بالفيلسوف الشهير « رينان » وإعجاب كل منهما بالآخر ، ودخولهما معاً في معركة — وإن لم تكن حامية — حول الإسلام والعرب ؛ وقد فتحت صدرها لهذه المعركة جريدة « الديبا » الفرنسية الشهيرة .

فقد ألقى الأستاذ « رينان » في السربون محاضرة دارت حول نقط ثلاث :

- (١) خطأ المؤرخين في قولهم : علوم العرب ، وفنون العرب ، وتمدن العرب ، وفلسفة العرب ، مع أن هذه الأشياء نتاج الأم غير العربية أكثر منه نتاجاً للأمة العربية ، فالتمدن أكثره من نتاج الفرس ، والفلسفة أكثرها من نتاج النصارى النسطوريين والوثنيين الحرانيين . والفلاسفة الذين ظهروا في دولة الإسلام كالكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد لم يكن منهم من العرب إلا الكندي ، فنسبة الحضارة والمدنية والعلم والفلسفة إلى العرب خطأ ، وعدم دقة في التعبير .
- (٢) أن الإسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر ، بل هو عائق لها ، بما فيه من اعتقاد للغيبيات وخوارق العادات والإيمان التام بالقضاء والتقدير . ومن اشتغل بالفلسفة من المسلمين اضطهد أو أحرقت كتبه أو كان في حماية خليفة أو أمير مؤمن في الظاهر غير متدين في الباطن ، ومع ذلك فما وصل إليه هؤلاء في الفلسفة ليس له قيمة كبيرة ، فهو ليس إلا فلسفة اليونان مشوهة ، والفلسفة التي أخذها الأوروبيون عن المسلمين في أسبانيا كانت فلسفة رديئة الترجمة ، مشوهة الأصل ، لم تستفد منها أوربة الفائدة الحقة إلا بعد ترجمتها ترجمة جديدة

من منابعها الأصلية . ومع هذا يقول « رينان » : « إن في دين الإسلام تعاليم ومبادئ عالية القيمة رفيعة المقام ، وما دخلت في حياتي مسجداً من مساجد المسلمين إلا شعرت بجاذبية نحو الإسلام ، بل تأسفت ألا أكون مسلماً . . . » ولكن الإسلام حجب العقل عن التأمل في حقائق الأشياء . . . وعقول أهل البلاد الإسلامية قاصرة ، وما يميز به المسلم هو بغضه للعلوم واعتقاده أن البحث كفر وقلة عقل لا فائدة فيه . (٣) أن العنصر العربي بطبيعته أبعد العقول عن الفلسفة والنظر فيها ؛ فالزمن الذي كان يسود فيه العنصر العربي — وهو عهد الخلفاء الراشدين — لم تكن فيه فلسفة ، ولم يظهر البحث العلمي ولا الفلسفة إلا حين انتصرت الفرس ونصروا العباسيين على الأمويين وسلموهم زمام الملك ، ونقلوا الخلافة إلى العراق ، مهد التمدن الفارسي القديم .

وختم محاضراته بالإشادة بقيمة العلم ودعوة الأمم كلها شرقية وغربية إلى الهجوم عليه ، « فالعلم روح كل هيئة اجتماعية ، وبه تتقدم الأمم ، وبه يتحقق العدل ، وبه يستخدم العقل القوة . . . وهو لا يساعد إلا على التقدم المؤسس على حرمة الإنسان وحرية » .

نشرت هذه المحاضرة في جريدة « الديبا » فأثارت خواطر المسلمين والمستشرقين والباحثين في شؤون المسلمين .

فكان ممن رد عليه الأستاذ « مسمر » رئيس البعثة المصرية بفرنسا إذ ذاك ، وفي زده كاد يسلم بالمسألة الأولى ، وهي أن المدنية العربية ليست مدنية العرب وحدهم بل مدنية الأمم المختلفة التي دخلت في الإسلام ، وفي المسألة الثانية قال إنه ليس في دين الإسلام وتعاليمه ما يمنع المسلمين من التقدم العلمي ، وقد تقدم المسلمون في عصور مختلفة ولم يمنعهم دينهم من أن يتفوقوا على المسيحيين في بعض تاريخهم ، وكل سائح الآن يسبح في البلاد الإسلامية يشعر بهضة الشرق وأخذه بأساليب

التقدم والإصلاح ، من غير أن يصدحهم دينهم عن ذلك . ثم قال : « ومن الغريب أنه قبل أن يلتقي السيورينان خطبته بيومين ألقى بعض العلماء العظام أمام المحفل نفسه محاضرة اشتملت على مكتشفات العرب في علم الحياة — وقد نشرت هذه المحاضرة في المجلة العلمية — ... وهي محاضرة ترشدنا إلى حقيقة التمدن الإسلامي في القرون المتوسطة ، فلو اطلع السيورينان عليها وعلى ما كتبه « سديو » و « دوزي » — في مؤلفاتهما عن العلوم والآداب والفنون والصناعات المنسوبة إلى العرب ، وعرف ما عملته هذه الأمة في العلم ، مما لا يحصى عدده على حين كانت أوربة منغمسة في التوحش والجهالة — ما نسب إلى العرب ما نسب ، وهذا العلم تقدم بمعونة الدين لا برغم الدين . فإذا كان الإسلام سمح للنساطرة والمجوس واليهود في دولته بهذا التقدم العلمي الذي ذكره سيورينان فلماذا لا يكون سبباً في حمل ملايين المسلمين الآن على الأخذ بأسباب العلم — وأما المسألة الثالثة فلم يعرهما مسيو مسمر كبير اهتمام في الرد .

وقد تحمس الشبان المسلمون في باريس لمقال « رينان » ورد « مسمر » فاجتمعوا وكلفوا أحدهم حسن عاصم « حسن باشا عاصم فيما بعد » تعريب المحاضرة والرد عليها فعرّبها ، وقال في أول ذلك : « لما كان الذب عن الدين فرضاً على الإنسان ، وحب الوطن من الإيمان ، اجتمع جم غفير من طلبة العلم المصريين المقيمين بفرنسا وكلفوا أخاهم العبد الفقير « حسن عاصم » بتعريب الخطبة التي ألقاها رينان ... طعننا في دين الإسلام والأمة العربية ، وبتعريب ما كتبه الفيلسوف الكبير صاحب الفكر الصائب السيوم مسمر ... والغرض أن نقف على الطعن والرد كل من كان على دين الإسلام أو من الأمة العربية ، حتى يمكنهم تنفيذ كلام السيورينان ، فيفعلوا إظهاراً للحق » ؛ كما عرب محمد مختار أحد طلبة العلوم الطبية بباريس المحاضرة التي أشار إليها مسيو مسمر .

بعد بضعة أسابيع من نشر محاضرة رينان رد الأستاذ جمال الدين عليه في « الدنيا » أيضاً ، ولكن كان رده هادئاً في بعض نقطه ، فلمله لذلك لم يعجب حسن عاصم ولا إخوانه ، ولذلك لم يهتموا بترجمته إلى العربية أو نشره ، فقد مدح رينان على بحته وإنصافه وقال إنه استفاد من محاضراته استفادة كبيرة ، ثم قال : « إن المحاضرة تشتمل على نقطتين أساسيتين : (١) أن الديانة الإسلامية كانت — بما لها من نشأة خاصة — تناهض العلم ؛ (٢) أن الأمة العربية غير صالحة بطبيعتها لعلوم ما وراء الطبيعة ولا للفلسفة .

« فأما عن النقطة الأولى ، فإن المرء ليتساءل ، بعد أن يقرأ المحاضرة عن آخرها ، أصدر هذا الشر عن الديانة الإسلامية نفسها أم كان منشؤه الصورة التي انتشرت بها الديانة الإسلامية في العالم ، أم أن أخلاق الشعوب التي اعتنقت الإسلام أو حملت على اعتناقه بالقوة ، وعاداتها وملكانها الطبيعية هي جميعاً مصدر ذلك ؟ لا ريب أن قصر الوقت المخصص للسيو رينان قد حال دون جلالة هذه النقطة .

ثم أخذ يبين أن ما وقع للمسلمين وقع مثله في الأديان الأخرى ، فرؤساء الكنيسة الكاثوليكية المبعجلون لم يلقوا أسلحتهم بعد كما أعلم ، وهم عاكفون على محاربة ما يسمونه بالتدليس والضلال (يعني العلم والفلسفة) .

قال : « وأما النقطة الثانية فالكل يعلم أن الشعب العربي خرج من حال الهمجية التي كان عليها وأخذ يسير في طريق التقدم الذهني والعلمي ، ويُقَدِّمُ^(١) السير بسرعة لا تعادلها إلا سرعة فتوحاته السياسية ، وقد تمكن في خلال قرن من التكيف بالعلوم اليونانية والفارسية ... فتقدمت العلوم تقدماً مدهشاً بين العرب ، وفي كل البلدان التي خضعت لسيادتهم . وقد كانت رومة وبيزنطة المدينتين

(١) يند : يسرع .

الرئيسيتين لعلوم اللاهوت والفلسفة ، بل مبعث أنوار المعارف الإنسانية كلها . . . ثم جاء الوقت الذي وقف فيه علماء هاتين المدينتين عن البحث ، وتهدمت فيه نُصُبهم التي أقاموها للعلم ، ودرجت كتبهم القيمة في طي النسيان ، وقد كان العرب في ذلك الجهل حين شرعوا يتناولون ما تركته الأمم المتعدنة ، فأحيوا تلك العلوم المنذرة ، ورقوها وخلعوا عليها بهجة لم تكن لها من قبل ، أو ليس هذا دلالة بل برهاناً على حُبهم الطبيعي للعلوم ؟ .

« صحیح أن العرب أخذوا عن اليونان فلسفتهم كما أخذوا عن الفرس ما اشتهروا به ، بيد أن هذه العلوم التي أخذوها بحق الفتح قد رقوها ووسعوا نطاقها ووضعوها ، ونسقوها تنسيقاً منطقياً ، وبلغوا بها مرتبة من الكمال تدل على سلامة الذوق وتنطوي على الثبوت والدقة النادرين . وقد كان الفرنسيون والإنجليز والألمان لا يبعدون عن رومة وبيزنطة بعد العرب عنهما ، وكان من السهل عليهم أن يستغلوا كنوز علوم تلك المدينتين ، ولكنهم لم يفعلوا ، حتى جاء اليوم الذي ظهر فيه منار المدينة العربية على قمة جبال البرانس يرسل ضوءه وبهائه على الغرب ، فأحسن الأوربيون إذ ذاك استقبال أرسطو بعد أن تقمص الصورة العربية ، ولم يكونوا يفكرون فيه وهو في ثوبه اليوناني على مقربة منهم . أو ليس هذا برهاناً آخر ناصحاً على مزايا العرب الذهنية وحُبهم الطبيعي للعلوم ؟

« ويتنازل مسيو رينان بأن البلدان الإسلامية في غضون خمسة قرون من سنة ٧٧٥ م إلى أواسط القرن الثالث عشر كانت تحتوى علماء ومفكرين عظاماً ، وأن العالم الإسلامي إذ ذاك كان يفوق العالم المسيحي في الثقافة الذهنية إذ يقول : إن أكثر الفلاسفة الذين شهدتهم القرون الأولى للإسلام كانوا كتابهيين السياسيين من أصل حرّاني ، أو أندلسي ، أو فارسي ، أو من نصارى الشام . ولست أريد أن أعطي علماء الفرس صفاتهم الباهرة ، ولأن أغض الطرف عن

الدور الجليل الذي لعبوه في العالم الإسلامي ، ولكن أرجو أن يسمح لي أن ألاحظ أن الحرائين كانوا عرباً ، وأن العرب لما احتلوا أسبانيا لم يفقدوا جنسيتهم بل ظلوا عرباً ، وأن اللغة العربية كانت إلى ما قبل الإسلام بعدة قرون لغة الحرائين ، وكونهم قد حافظوا على ديارهم القديمة وهي « الصابئة » ليس معناه أنهم لم ينتموا إلى الجنسية العربية ، وقد كانت أكثرية نصارى الشام عرباً غسانين اهتدوا بهدى النصرانية . أما ابن باجّه ، وابن رشد ، وابن طفيل فلا يمكن القول بأنهم أقل عربية من الكندي بدعوى أنهم لم يولدوا في جزيرة العرب ، وخصوصاً إذا اعتبرنا أن لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلقمتها .

« ثم ماذا يكون لو قصرنا نظرنا على الأصل الذي ينتمى إليه العظيم ، ولم نأبه للنفوذ الذي سيطر عليه ، والتشجيع الذي لقيه من الأمة التي عاش فيها ؟ لو قلنا ذلك لقلنا إن نابليون لا ينتمى إلى فرنسا ، ولما صح لألمانيا أو إنجلترا أن تدعى كلتاهما الحق في العلماء الذين استوطنوها بعد أن رحل أصولهم إليها من بلدان أخرى » .

ثم تعرض لأسباب انطفاء هذه الشعلة ، وختم رده بقوله : « إن العقل لا يوافق الجماهير ، وتعاليمه لا يفقهها إلا نخبة من المتنورين ، والعلم — على ما به من جمال — لا يرضى الإنسانية كل الإرضاء ، وهي التي تتعطش إلى مثل أعلى ، وتحب التحايق في الآفاق المظلمة السحيقة التي لا قبل للفلاسفة والعلماء برويتها أو ارتيادها » .

رد عليه الأستاذ رينان وباده مدحاً بمدح ، وإعجاباً بإعجاب ، وقال :

« تعرفت بالشيخ جمال الدين من نحو شهرين فوق في نفسى منه ما لم يقع لي إلا من القليلين ، وأثر في تأثيراً قوياً ؛ وقد جرى بيننا حديث عقدت من أجله النية على أن تكون علاقة العلم بالإسلام هي موضوع محاضراتي في السربون . . .

والشيخ جمال الدين نفسه خير دليل يمكن أن نسوقه على تلك النظرية العظيمة التي طلبنا أعلنائها ، وهي أن قيمة الأديان بقيمة من يعتنقها من الأجناس ، وقد خيّل إلىّ من حرية فكره ، ونبالة شيمه ، وصراحته — وأنا أتحدث إليه — أنى أرى أحد معارفي من القدماء وجهاً لوجه ، وأنى أشهد ابن سينا ، أو ابن رشد ، أو واحداً من أولئك الملحدّين العظام الذين ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرير الإنسانية من الإِسار .

ثم قال : « ولست أرى في البحث النفيس الذي عاجله الشيخ إلا نقطة يصح أن نختلف فيها حقيقة . . . فلسنا بالتأكيّد ننكر ما لرومة على تاريخ الإنسانية من نفوذ ، ولا ما كان للعرب من نفوذ ، ولكن هذه التيارات الإنسانية العظيمة في حاجة إلى تحليل ؛ إذ ليس كل ما كتب باللاتينية يزين تاج شهرة رومة ، ولا كل ما كتب باليونانية من عمل اليونانيين ، ولا كل ما كتب بالعربية نتاج عربي ، ولا كل ما نشأ في بلد مسيحي من تأثير المسيحية ، ولا كل ما ظهر في البلدان الإسلامية من ثمار الإسلام . . . »

« لقد خالني الشيخ غير منصف في أنى لم أوفّ الكلام حقه ، ولم أقل في المسيحية ما قلته في الإسلام ، وأن الاضطهاد بين المسيحيين لا يقل عما كان بين المسلمين ؛ وهذا قول حق ، فجاليو لم يلق من الكاثوليك خيراً مما لقيه ابن رشد من المسلمين . . . وإذا كنت لم أطل القول في هذه الحقيقة فلأن آرائي في هذا الشأن معروفة لا حاجة بي إلى تكريرها على مسمع محفلٍ علم بكل أعمالى وآرائى . . . »

ولست أريد من المسيحي ترك عقيدته المسيحية ولا من المسلم ترك الإسلام ؛ ولكن أريد من المسيحيين والمسلمين المتنورين أن يهتموا بالعلم اهتماماً لا تموقه العقيدة ، وقد تم هذا في نصف البلدان المسيحية ونرجو أن يتم مثله في الإسلام . وإن يوماً يتم ذلك فيه لما أرحّب به أنا والشيخ ونطرب له جميعاً . »

واستمر في تأييد رأيه الذي قاله في المحاضرة ثم ختم مقاله بقوله : « ويلوح لي أن الشيخ جمال الدين قد زوّدني بطائفة من الآراء الهامة تعينني على نظريتي الأساسية ، وهي أن الإسلام في النصف الأول من وجوده لم يحل دون استقرار الحركة العلمية في الأراضى الإسلامية ، ولكنه في النصف الثاني خنق الحركة العلمية وهي في حظيرته ، فكان هذا من سوء حظه » .

وهذه النتيجة الأخيرة — من غير شك — فيها كثير من التعديل لآراء رينان السابقة ، وهي تؤدي حتماً إلى أن مقاومة العلم ليست من طبيعة الإسلام ، ولو كانت من طبيعته ما شجع الحركة العلمية في أوله ولا آخره . وإلى هنا أسدل الستار على هذه الرواية التي سيعاد تمثيلها — على وجه أشد — بين مسيو هانوتو والشيخ محمد عبده . وما أقوى الردود ! ولكن أقوى منها رد المسلمين عليها بتبوّئهم مكانة عليا في العلم والفلسفة .

وأما الحادثة الثانية فسياسية ، ذلك أن بعض ساسة الإنجليز — وقد أحسوا حملة جريدة العروة الوثقى وتهيبجها الرأي العام على إنجلترا — رأوا أن يتفاهموا مع القائمين عليها فبعثوا إلى السيد جمال الدين في ذلك ، فأرسل مندوبه الشيخ محمد عبده وقال : « رأينا أن يذهب الشيخ محمد عبده (المحرر الأول لهذه الجريدة) إلى لندرة إجابة لدعوة من يُرجى منهم الخير لملتنا ، ومن يؤمّل فيهم حسن النية (إشارة إلى مستر بلنت) . . . » .

قابل محرر الجريدة كثيراً من رجال السياسة الإنجليزية وحادثهم محادثات طويلة في المسألة المصرية ، ومن هذه المحادثات ما نشر إذ ذاك في الجرائد الإنجليزية ، واكتفى السيد جمال الدين في العدد الرابع عشر من العروة الوثقى بذكر محادثات كانت بين الشيخ محمد عبده ووزير الحريية الإنجليزية لورد

« هرتنكن » خلاصتها أن وزير الحريية سأل الشيخ محمد عبده : ألا يرضى المصريون أن يكونوا في أمن وراحة تحت سلطة الإنجليز ، وهي خير من سلطة الأتراك ومن جاء على أثرهم ، خصوصاً وأن الجهالة عامة في أقطار مصر ، وأن كافتهم لا يفرق بين حاكم أجنبي وحاكم مصري ؟ !

ورد الشيخ محمد عبده بما خلاصته أن في المصريين من يحبون أوطانهم حب الشعب الإنجليزي لبلاده ، وأرض مصر من زمن محمد علي انتشرت فيها العلوم والمعارف ، وأخذ كل منها نصيباً على قدره ، ولا تخلو قرية مصرية من قارئين وكاتبين يقرءون الجرائد العربية ويوصلون ما فيها إلى من لم يقرأ ، والنقرة من ولاية الأجنبي من طبيعة البشر ، فضلاً عما لتعاليم الإسلام في هذا الشأن .

وقد أخذت الجريدة هذا الحديث وسيلة للتهيبج وإثارة الشعور . وعلى كل حال فلم تأت هذه الأحاديث بنتيجة من التفاهم ، واستمرت الجريدة في خطتها حتى حُجبت كما أسلفنا .

ماتت جريدة العروة الوثقى ، ولكن لم يمت أثرها ، فقد أحييت روح كثير من المتنورين في العالم الشرقي ، وأيقظتهم من سُباتهم ، وبصرتهم بسوء حالهم مع الاحتلال ، وعلمتهم كيف يكتبون ويخطبون ويدعون إلى الشعور بالقومية الذي سُمي بعدُ بالاستقلال ؛ فإن قلنا إنها كانت أول شرارة في الشرق لإلهاب الشعور بالكراهية للحكم الأجنبي لم نُبعد ، فقد كتبت في الجامعة الإسلامية والرابطة الشرقية والمسألة المصرية والسودانية والهندية ، وعالجتها كلها في حماسة وتهيبج بالغين ، ونظرت إلى كل ذلك في ضوء السياسة الدولية العامة ، والتبعت

إلى الشعوب تحريكها وتثير شعورها ، والحكومات المختلفة تبين لها أضرارها من احتلال الشرق ؛ وهكذا وهكذا .

لم تتأثر بالدعوة وقتذاك الشعوب ولا الحكومات الأجنبية ولا المحلية ، وإنما تأثرت بها طبقة قليلة من المستنيرين في الأقطار الشرقية المختلفة تأثراً كان نواة للحركات الوطنية بعد ، ولست أزمع أنها كانت النواة الوحيدة ، ولكن كانت النواة الأولى .

على كل حال عطلت الجريدة وانفرط عقد القامئين بأمرها . فالشيخ محمد عبده وميرزا باقر يعودان إلى بيروت ، والسيد جمال الدين إلى فارس بناء على دعوة من الشاه ناصر الدين . تلقاه الشاه والعلماء والأمراء في حفاوة ، ولكن سرعان ما دبت الغيرة في نفس الشاه وأحس خطره فتنكر له ، فاستأذن السيد في الرحيل ورحل إلى سان بطرسبرج عاصمة روسيا ، وأقام بها نحو ثلاث سنين من سنة ١٨٨٦ — سنة ١٨٨٩ .

لماذا اتجه إلى روسيا ؟ وماذا عمل في هذه المدة ؟

إن معلوماتنا عنه في هذه الفترة قليلة ، وأكبر الظن أنه شغل فيها بشيئين :
(١) حال المسلمين الروسيين وعددهم نحو ثلاثين مليوناً ، وكانوا يعاملون في عهد القيصرية معاملة ظالمة جائرة ، فلعله حاول باتصاله برجال الحكم إذ ذاك أن يلطف من ظلمهم ويخفف من جورهم . وقد عرف عنه أنه سعى عند القيصر في طبع المصحف ، وبعض الكتب الدينية لمسلمي الروس ، فأذن له في ذلك . (٢) ما كان لروسيا من أثر كبير في سياسة الشرق ومناهضتها للسياسة الإنجليزية في آسية ، وضغطها الشديد على الدولة العثمانية ، والعمل على إبعابها ، وتقطيع أوصالها ، ومع هذا التنافس والمخاصمة على الشرق بين إنجلترا وروسيا فإن كثيراً من السياسيين يرون أن هذه المنافسة أفادت إنجلترا وفرنسا وإيطاليا أكثر مما أفادت

روسيا . فلولا ضغط الروس على الدولة العثمانية ما سهل على فرنسا الاستيلاء على الجزائر وتونس ، ولا على إيطاليا الاستيلاء على طرابلس ، ولا على إنجلترا الاستيلاء على مصر .

على كل حال انغمس « السيد » أثناء إقامته في روسيا في السياسة الدولية وحرّض روسيا على سياسة إنجلترا . ونشر في الجرائد الروسية مقالات في السياسة الأفغانية ، والفارسية ، والعثمانية ، والروسية ؛ ونقد السياسة الإنجليزية ، وقابل القيصر فسأله عن آرائه في الشرق ، ثم سأله عن سبب خلافه مع الشاه ، فقال : إنه الحكومة الشورية ، أدعو إليها ولا يراها . قال القيصر : الحق مع الشاه ؛ فكيف يرضى ملك أن يتحكم فيه فلاحو مملكته ؟ قال السيد : أعتقد يا جلالة القيصر أنه خير للملك أن تكون ملايين رعيته أصدقاءه من أن يكونوا أعداء يترقبون له الفرص . فلم يُعجب القيصر هذا الحديث ، وقام : علامة الإذن له بالانصراف .

ثم سافر « السيد » إلى أوربة على نية أن يزور معرض باريس سنة ١٨٨٩ ، وفي أثناء سفره من روسيا إلى باريس نزل ميونيخ في ألمانيا ، وتقابل مع شاه الفرس ناصر الدين فعرض عليه العودة معه إلى فارس ، واعتذر إليه عما كان ، ووعدته أن يمهّد له طريق الإصلاح الذي يقترحه ، فرفض السيد أولاً وقبل أخيراً .

هاهو ذا السيد في طهران ، يلتف حوله جمهور من العلماء والعطاء ، ويتبلور فيه ما في نفوس الخيرين من ميل إلى الإصلاح ، فيسمى هو ومن التف حوله إلى وضع المشروعات في إصلاح الإدارة ، وإقامة المدل ، وتقنين القوانين ؛ وفوق ذلك تنظيم الحكم النيابي للبلاد . والحركة تشتد وتمتد ، والشاه يظهر الاستعداد لقبول هذه المطالب ، والنفوس العاملة تفرح لقرب النصر ، والأمل في الخير ، ولكن سرعان ما اكفهر الجو وأندر بالصواعق ؛ فيتمسّد وسوس

الصدر الأعظم للشاه أن الحكم النيابي يسلبه سلطانه ، والنظام الإداري والقانوني المقترح أعلى من مستوى الناس ، ونحو ذلك من مقالات السوء التي سمعنا مثلها في مصر أيام إقامة « السيد » فيها ، وفي تركيا أيام « مدحت » ، وفي كل مكان وزمان يدور فيها النزاع بين دعاة الإصلاح ودعاة الرجعية .

فتجههم الشاه له وأحسن « السيد » الخطر منه ، فخرج إلى مقام « عبد العظيم » أحد حُفدَاء الأئمة — على بعد نحو عشرين كيلو من طهران — والفرس يعدون مقامه حَرَمًا مَن دخله كان آمناً . اتخذهُ السيد مركزاً لدعايته وخطبه وتهييج الرأي العام لطلب الإصلاح ، وبعضُ العلماء والوزراء والضباط يحبون إليه ليسمعوا خطبه ، ويصفوا إلى آرائه ، ويعودوا وقد شُحنوا قوة كهربائية بقدر تحملهم للشحنة ، وكلهم ناثرها نَج يريد الإصلاح . وأقام على ذلك أشهراً والبلاد يزداد غليانها ، ومركز الشاه والحاشية يزداد خطراً ، والمنشورات تزداد ، والكتب الأغفال من الإمضاء تصل إلى الشاه بالعدل أو العزل ، وبالحكم النيابي أو تولية غيره .

فما راع « السيد » إلا خمسمائة جندي مسلحون يهجمون عليه غير حافلين بحرم الشيخ عبد العظيم ولا بمرض السيد مرضاً شديداً . وكما يصف هو : « سحبتني على الثلج إلى دار الحكومة بهوان وصغار وفضيحة لا يمكن أن يتصوّر دونها في الشناعة . . . ثم حملني زبانية ^(١) الشاه — وأنا مريض — على برذون ^(٢) ، مُسلسلاً ، في فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرية ؛ وساقنتني جَحْفَلَةً من الفرسان إلى خاقين » . ومنها سافر إلى البصرة يعاني ألم المرض الذي اشتد عليه من هذا الحادث ، وكاد يُودي به لولا لطف الله .

فلورأيته ثم لرأيت رجلا أكلت منه لحمي الحمية لحمي المرض ، وقد تجمع

(١) الزبانية : رجال الشرطة . (٢) برذون : دابة .

دمه في رأسه محتقن ، وفي وجهه يتهب ، وفي عينه تقذِف بالشرر ؛ كيف يهان هذا الهوان وهو الرفيع النسب ، العزيز الحسب ، العظيم الجاه ، العالى المنزلة في دينه وشرفه وعقله ، ورغبته في الخير ؟ كيف يرجوه الشاه أن يأتي بلده ويَعِدّه أن يُنفذ إصلاحه ، وبعلى كلمته ، ثم يعامله معاملة العبد يُطرد ، والدليل يُصنع ، والحقير يهان ؟

لقد آلى أن ينتقم منه شرّاً انتقام ، وألتهداً نفسه حتى ينزله عن عرشه ، وقد برّ فيما أقسم . فأخذ يكتب إلى علماء الدين المسوعى الكلمة يهيجهم على الشاه ، ولا يتورّع أن يصفه بأقبح الصفات ، ويبين ضرره على الأمة ، ويشير عاطفتهم الدينية ، ليشغبوا عليه حتى يُخلع . وكان الشاه قد تعاقد مع شركة إنجليزية على احتكارها «التنباك» فانتَهز الفرصة وأبان الضرر على الأمة من هذا الاحتكار ، وأهاب رجال الدين أن يذودوا عن وطنهم ، فاستمعوا إليه ، وهاجوا على الشاه ، وهيجوا عليه ، حتى اضطرّ إلى فسخ العقد ، ودفع نصف مليون ليرة تعويضاً للشركة ، فكانت هذه أول خطوات الانتقام .

ثم لما عادت إليه عافيته سافر إلى لوندرة ، وحاضر نبلاء الإنجليز وكبراءهم في مصائب الشاه على فارس ، وسام في إخراج مجلة شهرية أسماها « ضياء الخافقين » تصدر بالمرية والإنجليزية ، كان يكتب فيها مقالات بامضاء « السيد الحسينى » يفضح فيها حكومة الشاه ، وسوء الإدارة ، وانتشار الرّشوة ، وتعذيب الأهالى ، ويحرض فيها العلماء على عمل صغير ، وهو أن يُصدروا فتوى بعدم التعاون مع الشاه ، فإذا هو طريد ؛ ويختار من الألقاظ والجل ، في مدح العلماء وقوتهم أضخمها وأقواها ، وفي ذم الحكومة والشاه أهجاها وأقساها .

وهذه زلّة كبيرة من السيد جمال الدين ، دعاها إليها حدّته وحبّه للانتقام ؛ إذ كيف أجاز لنفسه التشهير بحكومة شرقية إسلامية في بلاد أجنبية تتخذ

من أقواله حجة للتدخل الذي طالما حاربه في « العروة الوثقى » ، وكيف استباح أن يفضح هذه العيوب ، ويغسل هذه الأثواب القذرة على مشهد من كل الناس ؟ لقد كان مدحت باشا في موقف كهذا أنبل من السيد وأكرم ، إذ نفاه « عبد الحميد » ، وأخذه رجاله من دسّت الوزارة إلى السفينة ، لا مال ولا ثياب ولا أهل ؛ ومع هذا فما وضع قدمه في أوربة حتى أخذ يسعى في دفع الشر عن أمته ، ويتكلم الكلام الكثير في فضل الأتراك على أوربة ، ولا ينطق بكلمة في ذم عبد الحميد الذي عامله معاملة الشاه لجمال الدين . الحق أنها غلطة من غلطات « السيد » دعا إليها حدة مزاجه .

لقد رجاه سفير فارس أن يكفّ عن الطعن في الشاه ، وعرض عليه المال الكثير ، فقال : لا ، حتى يلقي الشاه ربه .

تجمع عند السلطان عبد الحميد من الأسباب ما حمله على أن يدعو « السيد » إلى الآستانة ، فهو يخشى أن ينضم إلى حزب تركيا الفتاة ، فيكون قوة كبرى إلى قوتهم ، خصوصاً وقد كان السيد اجتمع في باريس ببعض رجال هذه الجمعية ، وأطلعوه على خطتهم في إصلاح الدولة العثمانية ، فراقه مذهبهم ، وشجعهم على عملهم ، وسمى جمعيتهم « الجمعية الصالحة » وبلغ السلطان ذلك عنه . ثم إن الشاه وسّط السلطان في كفت أذى جمال الدين . لهذا وذاك رجاه السلطان عبد الحميد أن يزور الآستانة فأبى ، ثم سلط عليه حيله ومكايده ، ووعدّه — في تنفيذ آرائه في الإصلاح — ومناه حتى قبيل ، وما إن وضع قدمه في الآستانة حتى كان في قفص من ذهب أحكم بابه ، لقد وعده السلطان أن له حرية الخروج من الآستانة إذا شاء ، ولكن كان كل ذلك خدعة .

أمر السلطان عبد الحميد باستقباله استقبالا حسناً ، وأجرى عليه ٧٥ ليرة شهرياً . وأنزله بيتاً ظريفاً في نيشان طاش ، بالقرب من يلدز ، وجعل تحت أمره

عربة وخدمًا وحشما ، بعضهم للخدمة وبعضهم للتجسس ؛ وأخطاه بكل أنواع
الرعاية المادية .

لقد خيل إليه أنه بمونة السلطان يستطيع أن يوسع دائرة إصلاحه ؛ فيضع
خطته لجامعة إسلامية ، يؤلف بها بين فارس والافغان وتركيا وولاياتها بنوع من
الاتحاد أو الحلف ، ثم يلهم منهج إصلاح الإدارة في الدولة العثمانية وإصلاح
التعليم ، وفاته أن جور الآستانة في عهد عبد الحميد لا يصلح أن تنمو فيه بذرة
صالحة ، وكان له في مدحت وأشباهه العظة البالغة . ولقد زار الآستانة الشيخ محمد
عبد بعد وفاة السيد وفي عهد عبد الحميد ، فقال فيها : « إنه لم يريثة في العالم
— ولم يكن يعقل وجود بيثة — كالأستانة في سوء تأثيرها في العقل والفكر
والقلب ، وإن ذهنه فيها كان ممسوحاً كأنه لم يكن فيه شيء من العلوم والآراء ،
ولهذا كان أحرار الترك معذورين في شرودهم منها ، وتوطن أنفسهم على كل
ما يمكن أن يلقاه الإنسان من ضروب البلاء والحن . »

قابل السلطان السيد ، في يلدز ، فرأى منه شخصية غريبة جريئة في القول
والحركة جرأة لم يشهدا من أحد قبل . يطلب منه السلطان أن يترك مهاجمة
الشاء ، فيقول « السيد » : إني لأجلك قد عَفَوْتُ عنه . فيرتاع السلطان لمثل
هذا القول — والسيد في حضرته يلعب بجبات الشبحة ، فإذا لقت نظره رئيس
« المايين » إلى ذلك بعد خروجه قال له : « إن السلطان يلعب بمستقبل الملايين
من الأمة ، أفلا يحق لجمال الدين أن يلعب بسببخته كما يشاء ؟! فيفزع رئيس
المايين ، ويهرُبُ من سماعه هذه الكلمة ، خشية أن يكون قد سمعها أحد . »

لقد تحدث إلى السلطان كذلك في الحكم الشورى للدولة العثمانية ، فخذعه
السلطان بتظاهره بحسن الاستعداد له ، وفرح السيد بهذا التظاهر ، واتفق معه
على العمل لتكوين الجامعة الإسلامية ، وعرض عليه السلطان منصب شيخ



صورة السيد جمال الدين أمداعا الى الشيخ محمد عبده وكتب علينا
« تذكرة للشيخ الفاضل محمد عبده يتذكر بها ما حوته الصدور ،
واستقرت عليه القلوب » سنة ١٨٨٥

الإسلام ، فأبى إلا إذا عُدل النظام من أساسه أولاً . وكرر مقابلته للسلطان والحديث إليه ، وكونَ أخيراً فكرة عن السلطان عبد الحميد بأنه ذكي واسع الاطلاع على السياسة الأوروبية والأعيانها ، واسع الخيلة في العمل على ضرب بعض الدول ببعض ، ولكنه جبان يفسد عليه جبنه ذكائه ومعرفته .

كانت المدة الأولى من إقامته في الأستانة محفوفة بعطف السلطان عليه ولو ظاهراً — يزوره السيد ويشير عليه بالإصلاح ؛ قال له مرة : « خذُ بحزم جدك السلطان «محمود» وأقص الخائنين من خاصتك الذين يكتُمون عنك حقائق ما يجري في الولايات ، وخفف الحجاب عنك ، وأظهر للملأ ظهوراً يقطع من الخائنين الظهور ، واعتقد أن نغم الحارس الأجل » فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .

ولكن ذهب كل ذلك مع الريح ، ووُجد له في الأستانة خصم لدود ، هو أبو الهدى الصيادي الذي أتقن من الحيل والدهاء والدسائس والمؤامرات والغلبة على عقل السلطان ما لا ينفع معه إخلاص جمال الدين وصراحتة ونصحه ، ففسدت حياة السيد ، وفسد ما بينه وبين السلطان ، وضاع كل أمل له في التعاون معه على الإصلاح ، وأصبح يقول في مجالس خاصته : « إن هذا السلطان سُئِلَ في رثة الدولة » . واقتصرت قيمة السيد مدة إقامته في الأستانة — وهي أربع سنين وأشهر — على ما كان يلقيه على زواره وسماحه من أحاديث وآراء ، إلى دسيسة بين حين وآخر تحاك حوله ، ويصْرِف الزمن في نقضها .

وكل تراثنا منه في هذه الفترة بعض من أحاديثه اللطيفة وآرائه الطريفة (١) وتحريكه عقول سامعيه إلى التفكير الحر في الإصلاح وفي الشؤون الاجتماعية . في هذه الفترة كانت تظهر من أحاديثه آثار الأسف والحزن ، إذ يعرض

(١) روى كثيراً منها الخزومي في خاطراته ، وشكيب أرسلان في ترجمته .

ماضيه فيرى ما كان منه من جهاد طويل في تحريك الشعوب الإسلامية ثم لم ينبض لها عرق ، وفي رجال عقد عليهم الأمل ثم غدروا ، وفي شاه خان ، وفي جريدة عطّلت ، وفي سلطان لا أمل فيه ، وفي بيثة خانقة . ماذا في يده بعد حياة طويلة قضاها في الكفاح وفي النفي ، وفي الحبس ، وفي الطرد ، وفي التفكير والتحرير ، وفي إيقاظ العقول النائمة والنفوس الخائرة ؟ لا شيء إلا أنه أسد في حديقة الحيوان ، ينشد حرية نفسه فلا يجدها ، بعد أن كان ينشد حرية الأمم الإسلامية كلها ويأمل أن يجدها .

يزوره شكيب أرسلان ، ويدور الحديث حول ما روى من أن العرب عبروا المحيط الأطلسي قديماً ، وكشفوا أمريكا ، فيقول السيد : « إن المسلمين أصبحوا كلما قال لهم الإنسان : كونوا بنى آدم ، أجابوه : إن آباءنا كانوا كذا وكذا . وعاشوا في خيال ما فعل آباؤهم ، غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينبغي ما هم عليه من الخمول والضعفة . إن الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا : أفلا ترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم ! قد كان آباؤكم رجالا ، ولكنكم أنتم أولاء كما أنتم ، فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آباءكم إلا أن تفعلوا فعلهم » ؛ « إن المسلمين قد سقطت همهم ، ونامت عزائمهم ، وماتت خواطرهم ، وقام شيء واحد فيهم هو شهواتهم » ؛ « هذا محمود سامي البارودي عاهدني ثم نكث معي ، وهو أفضل من عرفت من المسلمين » .

ولكن أحياناً تنقشع عنه سحابة اليأس ، ويعود إلى أمله في الشرق والمسلمين ، ويعود إلى ذكر الداء والدواء ، والأمل في العلاج ، ككل النفوس البشرية ، تتردد بين الحزن والسرور ، واليأس والأمل ، وكالطبيعة تتردد بين الصحو والقيم ، والإرعاد والإبراق ثم الإشراق .

فها هو ذا في رفقة من صحبه يحللون أدواء الشرق ويستوصفونه العلاج ، فيقول

إن الدواء هو ما يسير عليه الغربيون من العزة والجري على قول الشاعر العربي :
« عِشْ عَزِيزاً أَوْ مِتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ » . فإذا كان هذا بعيد المنال ، فلا بد من
تربية جيل جديد تربية دينية صحيحة ، يتولى أمرها أناس يأخذون على أنفسهم
عهداً ألا يقرعوا باباً لسلطان ، ولا يضعضهم الحدثنان^(١) ، ولا يثنى عزيمهم الوعيد ،
ولا يفرم الوعد بالمنصب ، ولا تلهيهم التجارة ولا الكسب ، بل يرؤن في المتاعب
وتحمل الكاره لنجاة الوطن من الاستعباد غاية الغم ، وفي عكسه المغم .

قيل له : وهل هذا في الإمكان ؟

قال : « إن الأزمة تلد الهمة ، ولا يتسع الأمر إلا إذا ضاق ، ولا يظهر
فضل الفجر إلا بعد الظلام الخالك — وعلى ما أرى قد أوشك فجر الشرق أن
ينبتق ، فقد ادلمت فيه ظلمات الخطوب ، وليس بعد هذا الضيق إلا الفرج ،
سنة الله في خلقه » .

ثم استطرد في المجلس إلى بيان الخطر مما تستعمله بعض الأمم الأجنبية
في الشرق من إضعاف اللغة القومية وقتل التعليم القومي ، والتنفير من آداب الأمم
الشرقية ، لتحل محلها لغتها وآدابها « مع أنه لا جامعة لقوم لا لسان لهم ، ولا لسان
لقوم لا آداب لهم ، ولا عز لقوم لا تاريخ لهم ، ولا تاريخ لهم إذا لم يقم منهم من
يحي آثار رجال تاريخهم ، فيعمل عملهم وينسج على منوالهم » . وكانت محاضراته
في مجالسه تدور حول موضوعات هامة تخلقها المناسبة ، كلها ترمي إلى الإصلاح
في العقيدة وفي الاجتماع وفي اللغة . وبين حين وآخر تثار حفيفة^(٢) السلطان
عليه بما يدبره أبو الهدى الصيادي وصحبه ، فيزور الأستانة — مثلاً — الخديو
عباس ويريد مقابلة جمال الدين ، ولا يكون هذا إلا بإذن ، فيرفض السلطان ويأمر
جمال الدين ألا يقابله ، فيقول لرسول الخديو : « إني كضيف للسلطان أسير »

(٢) الحفيفة : الغضب .

(١) الحدثنان : نواب الدهر وتصاريقه .

لُصِيفِي فِي مَنْزِلِهِ ، وَلَكِنِّي أَذْهَبُ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى « الْكَاعْغِدْخَانَةِ » لِتَنْزِهِ ، فَإِنْ شَاءَ أَنْ يَحْضُرَ الْخَلْدِيوُ إِلَى هُنَاكَ فَلْيَفْعَلْ . فَذَهَبَ الْخَلْدِيوُ وَقَابَلَهُ عَلَى انْفِرَادٍ ، فَاطْرَى الْخَلْدِيوُ السَّيِّدَ وَأَبْدَى لَهُ إِعْجَابَهُ بِهِ ، وَحَيَّاهُ تَحِيَّةً لَطِيفَةً ، وَهَذَا كُلُّ مَا كَانَ . فَاطَارَ الْجَوَاسِيْسُ إِشَاعَاتٍ فِي الْجَوِّ ، وَمَلَأُوا التَّقَارِيْرَ بِأَنْ جَمَالَ الدِّينُ قَدْ تَعَاقَدَ مَعَ الْخَلْدِيوِ عَبَاسٌ عَلَى تَأْسِيْسِ دَوْلَةِ « عَبَاسِيَّةٍ » ، وَوَضَعُوا يَتِيْنًا نَسَبُوْهَا إِلَى جَمَالِ الدِّينِ هَا :

شَادِ الْخَلْفَاةَ فِي بَنِي الْعَبَاسِ عَبَاسٌ لَكِنْ نَعْتُهُ السَّفَاحُ
وَأَنْتَ خَيْرُ مَمْلُوكٍ سَتَشِيْدُهَا بِالْبَشْرِ يَا عَبَاسُ يَا صَفَّاحُ (١)

وَقَامَتِ الدُّنْيَا وَقَعْدَتِ ، وَاسْتَدْعَى السُّلْطَانُ جَمَالَ الدِّينِ وَسَأَلَهُ ، فَقَالَ : إِنْ الْأَمْرُ بَسِيْطٌ ، فَقَدْ كَتَبْتُ التَّقَارِيْرَ أَنَا كُنَّا وَحَدْنَا وَلَيْسَ مَعْنَا ثَالِثٌ ، فَمَنْ سَمِعَ هَذَا الْقَوْلَ ؟ وَهَلْ إِذَا كَانَ هَذَا الْخَبْرُ صَحِيْحًا أَقُولُهُ أَنَا أَوْ يَقُولُهُ عَبَاسٌ ؟ ثُمَّ أَقْسَمَ أَنْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَحْدُثْ ، وَأَنَّهُ فِي حَيَاتِهِ لَمْ يَنْظُمْ شِعْرًا ، وَانْتَهَى الْأَمْرُ ، وَلَوْ — فِي الظَّاهِرِ — بَعْدَ جَلْبَةِ طَوِيْلَةٍ ، وَضَجَّةٍ مَفْتَعَلَةٍ .

وَحَدِثَ أَنَّ الشَّاهَ نَاصِرَ الدِّينِ — الَّذِي كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّيِّدِ الْخَلْصَوْمَةِ الَّتِي عَرَفْنَا — قَدْ قُتِلَ ، وَكَانَ الْقَاتِلُ أَحَدَ تَلَامِيْذِ جَمَالِ الدِّينِ ، وَمِمَّنْ كَانُوا يَزُوْرُوْنَهُ فِي الْأَسْتَانَةِ ؛ وَرُوِيَ أَنَّهُ عِنْدَمَا طَمَعَنَّ طَمَعِيْنَهُ قَالَ : « خَذْهَا مِنْ يَدِ جَمَالِ الدِّينِ » . وَرُوِيَ عَنِ جَمَالِ الدِّينِ أَنَّهُ لَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ قَالَ كَلِمَاتٍ تَدُلُّ عَلَى الْإِعْجَابِ بِالْقَاتِلِ ، فَذَلِكَ كُلُّهُ أَرَعَبَ السُّلْطَانَ عَبْدَ الْحَمِيْدِ ، وَخَافَ مِنْهُ عَلَى حَيَاتِهِ ، فَضَيَّقَ عَلَيْهِ فِي مَقَابِلَاتِهِ وَمَنْعَ زِيَارَتِهِ إِلَّا بِإِذْنِ ، فَفَضَّبَ جَمَالَ الدِّينِ وَعَزَمَ عَلَى الرَّحِيْلِ مِنَ الْأَسْتَانَةِ وَوَعَدَ بِإِعْطَائِهِ التَّصْرِيْحَ بِذَلِكَ مِنَ الْمَفْوُضِيَّةِ الْإِنْجِلِيْزِيَّةِ ، وَلَكِنْ السُّلْطَانُ كَانَ يَخَافُ مِنْهُ فِي الْخَارِجِ أَكْثَرَ مِمَّا يَخَافُهُ فِي الدَّخْلِ ، وَهُوَ تَحْتَ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ ، فَاسْتَرْضَاهُ وَرَجَاهُ فِي الْبَقَاءِ وَاسْتَعْمَانَ بِإِثَارَةِ إِيَّانِهِ الْعَارِ مِنْ الْإِلْتِجَاءِ إِلَى دَوْلَةِ أُجْنِبِيَّةٍ

(١) الصَّفَّاحُ : الْكَبِيْرُ الْعَفْوُ .

فمدل . ثم حلت المشكلة نفسها بمرضه بالسرطان في فمه ثم وفاته ، وشاعت الإشاعات المختلفة حول موته من إهمال مقصود في معالجته والاتفاق مع طبيب السلطان للتخلص منه .

وأياماً كان قد مات وشيعت جنازته كأقل الناس - لم يسرف فيها إلا أفراد معدودون غلبتهم الجرأة والوفاء ، ودُفن كما يدفن عامة الناس ، ومُنعت الجرائد في الولاية العثمانية من تأييده .

- ٦ -

ما تعاليم السيد في كلمة ؟ وما أغراضه في جملة ؟

يقول لوثرروب ستودارد الأمريكي Lothrop Stoddard : « إن خلاصة

تعاليم جمال الدين تنحصر في أن الغرب مناهض للشرق ، والروح الصليبية لم تبرح كامنة في الصدور كما كانت في قلب بطرس الناسك ، ولم يزل التعصب كامناً في عناصرها ، وهي تحاول بكل الوسائل القضاء على كل حركة يحاولها المسلمون للإصلاح والنهضة .

ومن أجل هذا يجب على العالم الإسلامي أن يتحد لدفع الهجوم عليه ليستطيع الدود عن كيانه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا باكتناه^(١) أسباب تقدم الغرب والوقوف على عوامل تفوقه ومقدرته . »

ويقول « جولد زيهير » : « إن جمال الدين كان - كما يرى براون - فيلسوفاً ، كاتباً ، خطيباً ، صحفياً ؛ وفوق ذلك كان سياسياً ، يرى فيه محبوه وطنياً كبيراً ، وخصومه مهيباً خطيراً ؛ وكان له أثر بالغ في النزعات الشورية التي حدثت في عشرات السنين الأخيرة في الحكومات الإسلامية ، وكان يرمى إلى تحرير الممالك

(١) الاكتناه : الوصول إلى الكنه والحقيقة .

الإسلامية من السيطرة الأوربية ، وإنقاذها من الاستغلال الأجنبي ، وإلى ترقية شؤونها الداخلية بالإدارات الحرة المنظمة ؛ كما كان يرمى إلى جامعة تنظم الحكومات الإسلامية ، ومنها إيران الشيعية ، لتتمكن بهذا الاتحاد من منع التدخل الأوربي في شؤونها .

ويقول السيد جمال الدين عن نفسه : « لقد جمعت ما تفرق من الفكر ، ولمت شعث التصور ، ونظرت إلى الشرق وأهله ، فاستوقفتني الأفنان وهي أول أرض مس جسمي ترابها ، ثم الهند وفيها ثقف عقلي ، فايران بحكم الجوار والروابط ، فجزيرة العرب : من حجاز هو مهبط الوحي ، ومن يمن وتبابعها ، ونجد ، والعراق ، وبغداد وهارونها ومأمونها ، والشام ودهاة الأمويين فيها ، والأندلس وحمراؤها ؛ وهكذا كل صقع ودولة من دول الإسلام وما آل إليه أمرهم . فالشرق الشرق ؛ فخصت جهاز دماغى لتشخيص دائه ، وتحريى دوائه ، فوجدت قتل أدوائه داء انقسام أهله وتشتت آرائهم ، واختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلاف . فعملت على توحيد كلمتهم ، وتنبيههم للخطر الغربى المهدق بهم . »

ويقول الشيخ محمد عبده : « أما مقصده السياسى الذى قد وجه إليه كل أفكاره وأخذ على نفسه السعى إليه مدة حياته — وكل ما أصابه من البلاء أصابه فى سبيله — فهو إنهاض دولة إسلامية من ضعفها ، وتنبيهها للقيام على شؤونها حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة ، والدولة بالدول القوية ، فيعود للإسلام شأنه ، وللدین الحنيفى مجده ، ويدخل فى هذا تقليص ظل بريطانيا فى الأقطار الشرقية . »

فيكادون كلهم يُجمعون على أن له غرضين واضحين :

(١) بث الروح فى الشرق حتى ينهض بثقافته وعلمه وتربيته وصفاء دينه ، وتنقية عميدته من الخرافات ، وأخلاقه مما تراكم عليها ، واستعادة عزته ومكانته .

(٢) مناهضته للاحتلال الأجنبي حتى تعود الأقطار الشرقية إلى استقلالها مرتبطة بروابط على نحو ما ؛ لتتق الأخطار المُحدِّقة بها .

كان في حياته يحمل في يديه العَلَمين معاً ، فلما مات تفرق العَلمان وتداولهما المصلحون بعدُ ، كلٌّ منهم يحمل أحد العَلَمين — هذا أو ذاك — لا يجمع بينهما .

فالشيخ محمد عبده — مثلاً — أ كبر تلاميذه وأقدرهم — خلفه في حمل العلم الثقافي لا السياسي . لقد تبين بعدُ أن اشتغاله بالسياسة في العُروة الوثقى ونحوها إنما كان مدفوعاً إليه بقلب جمال الدين لا بقلبه هو ، ولذلك اقترح عليه بدل إنشاء الجريدة إنشاء مدرسة للزعماء كما تقدم . فلما استقل بنفسه كان عمله في بيروت عملاً تعليمياً صِرْفاً ؛ ولما عاد إلى مصر كان بَرَنامِجَه التعليم والتثقيف بأوسع ما يستطيع وأتمه ؛ ولذلك اقترح على أولى الأمر بعد عودته أن يعيّن ناظرًا لدار العلوم أو أستاذًا فيها ، فحَسَبُوا من اتصاله بالتلاميذ لتاريخه الماضي ، وعينوه قاضيًا أهليًا ليكونوا بِمَأْمَنٍ من جانبه ؛ بل رأيناه يعلن في كتاباته السياسية وحروفها ومشتقاتها كراهية لها ، بل رأيناه يصرح بأن الواجب الأول على المصلح تثقيف الشعب وتهذيبه ، ثم الاستقلال يكون الحاجة ؛ بل رأيناه يضع خُطَّةَ إصلاحه بأن يتعاون مع الإنجليز ويصادقهم ، ويتفاهم معهم لينال منهم — بأقصى ما يستطيع — إغاثة فيما ينشد من إصلاح داخلي تثقيفي . وهذا سبب ما كان بينه وبين « مصطفى كامل » والحزب الوطني من خصومة ؛ بل ربما كان هذا سبباً أيضاً فيما نلاحظه من بعض الفتور في العلاقة بينه وبين أستاذه السيد جمال الدين ، فقد كتب من مصر للسيد — وهو في الأستانة — كتاباً غُفلاً من الإمضاء وتلميحاً لبعض الأشخاص من غير ذكر أسمائهم ؛ فهاج السيد وكتب إلى الشيخ محمد عبده جواباً من نار على هذا التصرف ، يُؤنَّبُه فيه على الجبن والخوف ، ويقول : « تكتب ولا تَمْنِي وتَمَقِد الأناز ؟ ... أمامك الموت ، ولا ينجيك

الخوف ... فكن فيلسوفاً يرى العالم العوبة ، ولا تكن صبياً هُلوعاً . ولعل هذا آخر ما كان بينهما من تواصل .

وما كان بالشيخ محمد عبده من جبن ، ولكن الجسم المتهب بشعر بالجسم المعتدل بارداً ، وقد كتب السيد جوابه هذا وقد ملكته الحدة ، وكَم مَلَكْتُهُ ! على كل حال اختطَّ الشيخ محمد عبده لنفسه خطة اقتنع بها كل الاقتناع ، وهي رفع أحد العلمين دون الثاني ، فأخلص لمبدئه ، وبذل في ذلك جهده وصحته وعقله وماله ، واتجه إلى كل نواحي الثقافة يفتديها وينميها ويصلح بقدر ما يستطيع إنسان أن يعمل .

أما الذين رفعوا العلم الآخر — علم مناهضة الحكم الأجنبي — فهم عبد الله نديم ، ثم مصطفى كامل وفريد ، ثم سعد زغلول ؛ فساروا على مثل دعوة السيد جمال الدين ، مستخدمين ما استجد من أساليب ، وما استعمله الغرب من وسائل . هذا في مصر ومثله في سائر أقطار الشرق ، من زعماء حملوا لواء الإصلاح الثقافي ، وزعماء حملوا اللواء السياسي مما يطول ذكره ؛ وقد نعروض — فيما نكتب بعد — لبعضه . ولو انتبه « السيد » اليوم من رقدته لجدَّ من الشرق سيرته ، وإن كان أكبر الظن أنه يحتد عليه لبطنه ؛ فقد كان — رحمه الله — حاراً حاد المزاج لا يرضيه من الإصلاح السير على الأقدام ولا ركوب القطارات ، بل لا يرضيه بعض الرضا إلا ركوب الطائرات وحرب الدبابات . يقول الشيخ محمد عبده في وصفه : « إنه طموح إلى مقصده السياسي ، إذا لاحت له بارقة منه تمجّل للسير للوصول إليه ؛ وكثيراً ما كان التمجّل علة الحرمان ... وهو شجاع مقدام لا يهاب الموت كأنه لا يعرفه ، إلا أنه حديد^(١) المزاج ؛ وكثيراً ما هدمت الحدة ما رفعته النطنة » .

(١) حديد : فيه حدة ، أي شدة واحتياج .

ثم كان أشبه الناس في سياسته بـ«علي لا بمعاوية»، كانت سياسة معاوية عنوانها: «إنا لا نصل إلى الحق إلا بالخوض في كثير من الباطل». أما «علي» فلا يريد الخوض في الباطل ليصل إلى الحق، بل لا يريد إلا الحق من طريق الحق، وإلا فلا كان. وهكذا كان جمال الدين. قال الشيخ محمد عبده: «ماذا كان يضر السيد لو مهد لإصلاحه — وهو في الآستانة — بالسمي عند السلطان في إعطاء أبي الهدى الصيادي خمسمائة جنيه ونيشاناً لابنه أو لأخيه، فإذا رأى أبو الهدى أن «السيد» يخدمه فإما أن يواتيه، وإما ألا يناويه»^(١) ولكن أنى للسيد أن يطلب هذا الباطل وهو يعتقد أن أبا الهدى سافل دنىء إذا طلب له شيئاً فالشئق؟ ولما كان السيد يحكى لخاصته إقناعه للسلطان بأن حادثة الخديو عباس دسيسة، وأن السلطان اقتنع بذلك، وأخبره أن هذا من دسائس أبي الهدى، قال له عبد الله نديم: ليتك عندما صرح السلطان بذلك ذكرت له دسائسه وضرره. فغضب عند ذلك جمال الدين، وقال: «أعوذ بالله أن أكون من المناققين، أو أن أفعل ما أنكره على الغير، أو أن أكون همّازاً مشاءً بنميم»^(٢).

وهكذا يريد الحق غاية، ويريد الحق وسيلة؛ والدنيا علمتنا أن سياسة معاوية هي التي نجحت، وأن سياسة الدنيا تقوم على المصالحة وأخذ شيء بترك شيء. فمن أراد الحق كاملاً وإلا فلا، فليشدد ذلك في المثل الأعلى للخلق لافي السياسة، أو فليتنظر حتى تخضع السياسة للخلق.

* * *

بقيت مسألة هامة في تاريخ السيد، وهي اتهامه بالإلحاد — وقد أشرنا إليها من قبل. ولرمي السيد بالإلحاد تاريخ طويل، فقد رُمي به في الآستانة

(١) يناويه: يناوته، أى: يباديه.

(٢) همّاز: يفمز ويصيب. مشاء بنميم: بسى بالرشاية ويشيع المعائب.

عند زيارته لها أول مرة ، إذ خطب في دار الفنون خطبة ذكر فيها أن المعيشة الإنسانية أشبه شيء ببدن الحي ، وأن كل صناعة بمنزلة العضو ، فالملك كالخ ، والحداثة كالمضد ، والزراعة كالكبدة . . . الخ ، ولا حياة للجسم إلا بالروح ، وروح المعيشة الإنسانية النبوة والحكمة .

فاتهموه بالإلحاد لهذا ، وشنعوا عليه بأنه يقول إن النبوة صناعة ، وشغبوا عليه ، حتى نُصح له بالخروج من الآستانة .

فلما جاء إلى مصر اتهمه بعض العلماء كالشيخ عيش وبعض العامة بالإلحاد ، والإلحاد في نظر هؤلاء وأمثالهم شيء هين . يكفي ألا يسير سيرتهم ، ولا يلبس لباسهم ، وأن يدخن السيجار ، ويجلس في المقهى ، ويلتف حوله بعض اليهود والنصارى ، ليحكوا عليه بالإلحاد . وكما أن عقيدة كل إنسان لها لون خاص ، فكذلك تصوره للإلحاد يتكيف بذهنه .

ثم لما ترجم سليم بك عنحورى للسيد جمال الدين في كتابه «سحر هاروت» رمى السيد أيضاً بالإلحاد فقال : « إنه برز في علم الأديان حتى أفضى به إلى الإلحاد والقول بقدم العالم ، زاعماً أن الجرائم الحية المنتشرة في الفضاء ترقى وتتحوّر^(١) إلى ما نراه من أجرام ، وأن القول بوجود محرك أول حكيم وهم نشأ عن ترقى الإنسان في تعظيم العبود على حسب ترقيه في العقولات ... الخ » .

وقد قابله الشيخ محمد عبده ، وعاتبه على نشره مثل هذا القول من غير تحرر وتدقيق ، فكتب سليم بك في الجرائد يصحح فيه قوله ، ويقول : إني قابلت الشيخ محمد عبده ، فأوضح لي بدلائل ناهضة وبراهين داحضة ، أن ما تتناقله الألسن من هذا القبيل ما كان إلا من آثار الحسد ، وأن السيد كان أثناء مناظراته الجدلية يشرح النحل والبدع وأقوال المطللين شرحاً وافياً ، ثم يقيم الحجج على

(١) تحوّر : تستدير .

بطلانها ؛ فلعل سامعاً سمع منه هذا القول في مثل هذا الموقف فنسبه إليه ؛ وقال :
إنه لم يسمع من السيد هذا الكلام ، وإنما تلقاه عن بعض المصريين والسوريين .
ونقل كلاماً للسيد اطلع عليه في وجوب الدين ، وضرورة الاعتقاد بالألوهية ، ومزايا
الإسلام ؛ وختم مقاله بقوله : « إننا سارعنا لإذاعة هذا ، شأن المؤرخ العادل ،
وقياماً بحق الأدب ، وضئاً بفضل هذا الرجل الخيّر من أن تناله السنة من لا يعرفونه
خطأً وافتراءً . والله يتولى الصادقين » .

ثم رأينا ما اتهمه به « رينان » بعد ما جالسه في باريس فكتب كلمته
التي ذكرناها من قبل ، وهذا أدق موقف ؛ فرينان فيلسوف واسع الذهن
دقيق التعبير ، لا يلقي الكلام على عواهنه ، خصوصاً وقد ورد في ردّ السيد جمال
الدين عليه ما يفيد أنه سلم للسيورينان بأن الإسلام كان عقبة في سبيل العلم .
ولكن في رأي أن السيد عبر تعبيراً غير دقيق في تفرقة بين طبيعة الدين
الإسلامي وسيرة المسلمين ، خصوصاً أنه أخذ على رينان تقصيره في أنه لم يبحث
هل هذا الشر نشأ عن الديانة الإسلامية نفسها ، أو عن الصورة التي تصور بها
الإسلام ، أو عن أخلاق بعض الشعوب التي اعتنقت الإسلام ؛ وقراءتنا لرده
تشرنا بأنه وقع في هذا اللبس ، وأنه كان يدور حول فكرة أن للدين دائرة ،
وللعلم دائرة ، ويجب أن يسبح كلٌّ في دائرته من غير طغيان ، وأن الدين يجب
ألا يعارض العلم فيما ثبتت صحته علمياً — وهذه الآراء الواضحة في ذهننا الآن ،
والواضحة في تعبيرنا ، لم ترد واضحة في رده ، فكان ردّاً مهوشاً ، كما كانت محاضرة
رينان نفسها كذلك .

وليس من شك في أن السيد كان حر التفكير قوياً على الجدل ، متشعب
طرائق الحجج ، فمن الممكن جداً أن يكون في مجالسه مع رينان تبحيح^(١)

(١) تبجج : توسع وتبسط .

في بعض الأقوال التي من هذا القبيل ، والتي تحدث لكثير من كبار المفكرين في بعض اللحظات ، فحكم رينان عليه هذا الحكم الشامل خطأ .
ثم كان « السيد » ، كما يحكى عنه الشيخ محمد عبده وبعض خاصته ، متصوفاً يدين بعقيدة المتصوفة ، وهي مبهمه غامضة تنتهى بوحدة الوجود ، والتعبير عنها قد يلتبس — إلا على الخاصة — بالإلحاد ، ومن أجل هذا رُمى محيي الدين بن العربي وأمثاله بالكفر لعدم الدقة في وزن الأقوال .

إن حياة « السيد » مملوءة بالدعوة الحارة إلى الدين ، وإلى التوحيد ، في كتاباته في « الرد على الدهريين » وفي العروة الوثقى ، وفي مجالسه الخاصة .

يذكر بعض خاصته أنه سمع رجلاً كبيراً تكلم كلمة في حق النبي . فأصر

« السيد » من معه من الأفغانيين بضربه ، فضربوه حتى خرج يزحف .

وحكى الخزومي مجلساً شهده ، إذ زار رجل جمال الدين في بيته في الأستانة

وجرى الحديث فقال هذا الرجل : « إني قرأت كتب الفلاسفة فثبت لي أن الله

غير موجود ولا يعتقد به إلا حيوان » . فضاقت صدر السيد ولم يجبه ، ودعا الحاضرين

إلى حديقة البيت وكان فيها أنواع من الطيور والدجاج ، فتصايحت الديكة وغردت

الطيور ، فقال السيد : « كيف لا يفضل أضعف حيوان أعجم يذكر الله إنساناً

ناطقاً ينكر وجود الله؟! كيف يجرؤ على إنكار واجب الوجود من يأكله الدود؟!

إذا لم يتعظ الإنسان بما فوقه من أجرام فليتعظ بما تحته من رفات الأجسام ! »

فخرج الرجل الملحد خجلاً من غير أن يؤدع .

لا يمكن أن تصدر هذه الكتابات وهذه الأقوال وهذه الفيرة من ملحد ،

إلا أن يكون قد بلغ الغاية في التصنع والنفاق . ولم يكن عيب جمال الدين نفاقه ،

إنما كان عيبه إفراط في صراحته وعدم استطاعته كتمان ما يعتقد ، ويقول :

« لا يكون الكمال النسبي في البشر إلا متى كثر إعلانهم وقلّ كتمانهم » .

وأكثر متاعبه في الحياة كان سببه جهره بما يصح أن يكتم وإعلانه ما يجب أن يُسر ، فأخلاق مثل هذه تؤكد أنه لو كان السيد ملحداً يرى الحق والخير في الإلحاد لدعا إليه في صراحة وجراءة وشجاعة من غير ما مواربة ولا إيماء .

لقد كان يؤمن بالأصول ، ويترك لعقله الحرية في الفروع ، وبصل في ذلك إلى نتائج غريبة عن أذهان الجامدين المترمطين فيرُمى بالإلحاد ؛ فكان ينفِر من التقليد ويدعو إلى الاجتهاد ، ويُذكر في مجلسه قول للقاضي عياض ويتمسك به راووه فيقول «السيد» : «سبحان الله ! إن القاضي عياضاً قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله وتناوله فهمه ، وناسب زمانه ، أفلا يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب للحق وأوجه وأصوب من قول القاضي عياض وغيره من الأئمة ؟ إذا كان القاضي عياض وأمثاله سمحوا لأنفسهم أن يخالفوا أقوال من تقدمهم فاستنبطوا وقالوا ما يتفق وزمانهم فلم لا نستنبط ونقول ما يوافق زماننا ! ؟

« ما معنى بابُ الاجتهاد مسدود ، وبأى نص سُدَّ ، أو أى إمام قال لا يصح لمن بعدى أن يجتهد لينتفه في الدين ، ويهتدى بهدى القرآن وصحيح الحديث والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم المصرية وحاجات الزمان وأحكامه ؟ !

« إن الفحول من الأئمة اجتهدوا وأحسنوا ، ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن ، واجتهادهم فيما حواه القرآن ليس إلا قطرة من بحر ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده » .

ويرى أن التفرقة بين أهل السنة والشيعة أحدثتها مطامع الملوك لجهل الأمة ، وجميعهم يؤمنون بالقرآن ورسالة محمد ، قيم الخلاف ؟ ولم القتال ؟ .

ويقول : إن الأديان الثلاثة كلها أساسها واحد ، وإنما يوسع شُكَّة الخلاف

بينها أتجار رؤساء الأديان بها .

ويُفِيضُ في اشتراكية الإسلام ويقارن بينها وبين اشتراكية الغرب ، فيرى أن اشتراكية الغرب بحث عليها جَوْرُ الحُكَّامِ وعوامل الحسد في العمال من أرباب الثراء ، أما الاشتراكية التي كانت في الإسلام فملتزمة مع الدين ، ملتصقة مع الخلق ، باعث عليها حب الخير ، كما في أعمال عمر وأبي ذر .

ويعرض في مجلسه للحديث عن الرجل والمرأة والسفور والحجاب فيطيل القول في ذلك . وخلاصة رأيه أن المرأة في تكوينها العقلي تساوى الرجل ، فليس للرجل رأس والمرأة نصف رأس ، والتفارت الذي بينهما لم يأت إلا من التربية وإطلاق السراح للرجل وتقييد المرأة للبيت ولتربية الجليل ، ومهمتها في هذا أمر وأسمى مما يقوم به الرجل من كثير من الصناعات ؛ ويخطئ من يطلب مساواة الرجل بالمرأة في كل شيء ، فلكل وظيفة ، وعلى تعاونهما — كل في عمله — يقوم المجتمع ، ولا مانع أن تعمل المرأة في الخارج إذا فقدت عائلها واضطرتها ظروفها إلى ذلك ، ولكن بِنِيَّةٍ صالحة وذيل طاهر . ثم قال : « وعندى أن لا مانع من السفور ، إذا لم يُتخذَ مَطِيَّةً للفجور » .

ويقول : « إن الدين لا يصح أن يخالف الحقائق العلمية ، فإن كان ظاهره المخالفة وجب تأويله . وقد عم الجهل وتفشى الجود في كثير من المترددين برداء العلماء ، حتى اتهم القرآن بأنه يخالف الحقائق العلمية الثابتة ؛ والقرآن برىء مما يقولون ، والقرآن يجب أن يحل عن مخالفة العلم الحقيقي خصوصاً في الكليات » .

والسيد واسع الصدر ينقد « شبلي شميل » في آرائه الملحدة التي جاوز فيها مذهب « داروين » ، ومع ذلك يقدره لصبره على البحث وجرأته في الجهر بما يعتقد ولو خالف الناس . وهكذا وهكذا مما يراه المتزمتون خروجاً عن المؤلف ، فما أقرب ما يقذفون بكلمة الإلحاد ! .

سُنَّة مألوفة في الكون ، لا يأتي مصلح سابق لزمه إلا رُمي بالزندقة أو الكفر أو الجنون ، ثم أودى ممن يسعى في الخير لم ، وممن يضحى بسعادته لسعادتهم ؛ ولا يقدر حق قدره إلا بعد أن يهدأ الحسد بموته ، وتتجلى صحة دعوته بعد زمنه .

أقد قصدتُ الأستانة سنة ١٩٢٨ بعد وفاته بإحدى وثلاثين سنة ، فرأيت واجباً أن أزور قبر هذا الرجل العظيم ، وأستعيد عنده ذكرى عظمته وسلسلة أعماله ، فسألت عنه الكثير فلم يعرفه ، ورأيت رجلاً أفغانياً يعمل خازناً لمكتبة الشهيد علي ، فوصف مكانه لي ، فذهبت مع صديقي « العبادي » عصر يوم الأحد ٨ يوليه إلى « ماچقة » أو « متشكة » ، فوجدت في ربوة على مدخل البوسفور مقبرة قد انتشرت فيها المدافن ، ودلنا شيخ المقبرة على مدفن السيد ، فدلنا أن قبره كان قد تَشَعَّتْ ولم يُعَنَّ به أحد ، وكادت أتضيع معالمه ولم يفكر فيه أحد من أهل الشرق الذين أفنى فيهم حياته ، إنما ذكره مستشرق أمريكي حضر إلى الأستانة سنة ١٩٢٦ وَنَقَّبَ عن قبره حتى وجده ، فبنى عليه تركيبة جميلة من الرخام ، وأحاطها بسور من حديد ، وكتب على أحد وجوه التركيبة اسم السيد وتاريخ ولادته ووفاته ، وفي وجه آخر كتابة تركيية ترجمت لنا كما يأتي : « أنشأ هذا المزار الصديق الحميم المسلمين في أنحاء العالم الخير الأمريكاني المستر شارلس كرين سنة ١٩٢٦ » .

وقفنا على قبره ، وقلت : هنا رقد محيي النفوس ، ومحرم العقول ، ومحرك القلوب ، وباعث الشعوب ، ومززل العروش ، ومن كانت السلاطين تفار من عظمته ، وتخشى من لسانه وسطوته ، والدول ذات الجنود والبنود^(١) تخاف من حركته ، والممالك الواسعة الحرية تضيق نفساً بحريته .

(١) البنود : الرايات .

هنا تخدم من كان يشعل النار حيث كان ، في الأفغان ، في مصر ، في فارس ،
في باريس ، في لندرة ، في الأستانة .

هنا باذر بذور الثورة العرابية ، وموجب النفوس للثورة الفارسية ، ومحرك
العالم الإسلامي كله لمناهضة الحكومات الأجنبية ، والمطالبة بالإصلاحات
الاجتماعية . هنا من حارب الحكم الاستبدادي في مصر ، وناصر الدين في فارس ،
وانجلترا في باريس ، وحارب الجهل والامية والذلة في الشرق ، والجاسوسية والنفاق
في الأستانة . ولم ينتصر عليه شيء إلا الموت .

لقد أجلناه وأعظمناه ، والتهبت نفوسنا لذكراه ، فكيف كان تحضره
ومرآه ، رحمه الله .

بعض ما أتر عنه :

جمع محمد باشا الخزومي بعض ما دار في مجالسه واستشار الأستاذ في أممها ،
فقال : سمها « خاطرات » ؛ فقال الخزومي : إن بعض الأصدقاء نبهني إلى أن هذه
اللفظة غير صحيحة في اللغة ، والأقرب للصواب أن نسميها « خطرات » أو « خواطر » .
فقال : قل « خاطرات » ولا تبال بمن فسد لسانهم ولا يصلحون إلا للأجوف
والمهوز ، ولا يحسنون جملة تنقر حبة القلب أو تطرب السمع .

ولما جاء مصر أعجبه برنامج الماسونية من دعوة إلى « الحرية والإخاء
والمساواة » ، فانضم إليها ، وعرض عليهم في الحفل يوماً إطاعة لأحد الإخوان ،
فسأل « الأستاذ » : هل الأخ مريض ؟ قالوا : لا . قال : هل هو صحيح البنية ؟
قالوا : نعم . فقال : « صحة البدن وذل السؤال لا يصح أن يجتمعا لإنسان » .

ولما أخرج من مصر ذهب بعض محبيه إلى السويس يحملون له مقداراً
من المال عرضوه عليه وسألوه أن يقبله قرصاً . فقال لهم : « أتم إلى هذا المال
أحوج ، والليث لا يعدم فريسته حينما ذهب » .

ولما استدعاه السلطان عبد الحميد إلى الأستانة سنة ١٨٩٢ ووصل إليها ، كان في انتظاره الياور السلطاني ، فسأله : أين صناديقك أيها السيد ؟ فقال : ليس معي غير صناديق الثياب وصناديق الكتب . فقال الياور : حسناً ! أين هي ؟ فقال السيد : صناديق الكتب هنا (وأشار إلى صدره) ، وصناديق الثياب هنا (وأشار إلى جيبته) .

وقد قال : « كنت أول عهدى أستصحب جُبة ثانية ، ولكن لما توالى النفي صرت أستقل الجبة الثانية ، فأترك التي على إلى أن تَخَلَق^(١) فأستبدل بها غيرها » . وكان يجالس السلطان عبد الحميد كثيراً ، فسئل عن رأيه فيه ، فقال : « إن السلطان عبد الحميد لو وزن بأربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم : ذكاءً ودهاءً وسياسة ، خصوصاً في تسخير جليسه ... ولا عجب إذا رأيناه يذلل ما يُقام في ملكه من الصعاب من دول الغرب ، ويخرج المناوى له من حضرته راضياً عنه وعن سيرته ، مقتنعاً بحجته ، سواء في ذلك الملك والأمير والوزير والسفير . ولكن يا للأسف عيب الكبير كبير ، والجن من أكبر عيوبه » .

وعرض عليه السلطان عبد الحميد منصب مشيخة الإسلام ، فأبى إلا أن يُعمل عمل أساسي يتغير به النظام الحاضر ، وقال : « إن وظيفة العالم ليست بمنصب ذي راتب ، بل بصحيح الإرشاد والتعليم ، وربته ما يُحسن من العلوم مع حسن العمل بالعلم » .

وعاش جمال الدين عزباً طول حياته ، وكان كلما شكاه أحد كثرة العيال وقلة ذات اليد يعينه على قدر استطاعته ، فعرض عليه السلطان يوماً أن يزوجه جارية حسناء من قصر يلدز ، فامتنع السيد من ذلك ، فسئل : هل تؤيد رأى أبي العلاء :
هذا جناه أبي عداً و ما جنيتُ على أحد

(١) تخلق : تبلى .

قال : كلا ، كيف يصح لما قل أن يعتبر الزواج جنابة وبه بقاء النوع واستكمال
حكمة العمران ؟ أما أنا فمرفتي بما تتطلبه الحكمة الزوجية من معاني العدل ، وعجزى
عن القيام به دفعنى أن أتقى عدم العدل ببقائى عزباً .

فقال له طيب يهودى كان من خاصته : فهل تضادياً من الخوف من عدم
العدل يجوز أن يخالف الإنسان طبيعته ؟ فتبسم السيد وقال له : « إن الطبيعة
أحكم منك ، فهى تدبر نفسها ، ومن ترك شيئاً عاش بدونه . »

قيل له : إنك تقبل من السلطان عطاءه من المال فلم لا تقبل عطاءه من الجوارى الحسان ؟
قال : أما المال الذى يعطينيه فإنى أجد له — على قدر اجتهادى — أكفاء
يقومون بأداء الواجب نحوه ، وأما الزواج بالجارية الحسنة فما أنا بالكفء لها ،
ولست بوليها لأتجرى لها كفوها .

وكان السيد جمال الدين كثير الإعجاب بذكاء الشيخ محمد عبده وفضله ، وكان
كلما ذكره يقول : « صديق الشيخ » ، وكان السيد عبد الله نديم فى آخر أيامه
يكثّر من التردد على منزل جمال الدين ، فقال له يوماً : قد أكرت من الثناء
على الشيخ محمد عبده كأنه لم يكن لك صديق غيره ، وتنعت غيره بقولك صاحبنا ،
و « فلان من معارفنا » . فتبسم السيد جمال الدين وقال : « وأنت يا عبد الله
صديق ؛ ولكن الفرق بينك وبين الشيخ أنه كان صديقى على الصرّاء ، وأنت
صديقى على السرّاء » ، فسكت النديم .

وكان جمال الدين يهزأ بمبدأ « داروين » الذى يُعنون « بتنازع البقاء » ،
ويقول : إن المبدأ هو « تنازع القناء » ، ويقول : إن البقاء الذى ينبغى أن يطلب
ولا يمتريه فناء ليس فيه تنازع ولا نزاع ، والتنازع القائم الآن إنما هو على أشياء
تفنى ، والمتزيع والمتنازع والمنزوع منه سواء فى المصير إلى القناء ، فكان الأولى
أن يقال : « تنازع القناء » .

قيل له : وهل يُجمع العالم المتمدن كله على مثل هذا الخطأ ؟
فقال : وما العالم المتمدن ؟ هل رأينا غير مدن كبيرة وأبنية شاححة وقصور
مزخرقة ينسج فيها القطن والحرير بأصباغ كيميائية مختلفة ألوانها ، ومعادن
ومناجم ، واحتكار تجارات أنت لهم بثرواتهم ؛ ثم هل غيرُ التفنن في اختراع المدافع
المروعة والمدمرات والقذائف وباقي الخربات القاتلات للإنسان ، تتبارى فيها تلك
الأمم الراقية المتمدنة اليوم ؟

لو جمعنا كل تلك المكتسبات العلمية ، وما في مدنيات تلك الأمم من خير ،
وضَعَفناه أضعافاً مضاعفة ووضعناه في كِفَّةٍ ميزان ، ووضعنا في الأخرى الحروب
وَوَيْلاتها ، وكانت كِفَّة العلوم والمدنية والتمدن هي التي تنحط وَتَفُور ، فالرقى والعلم
والتمدن على ذلك النحو إن هو إلا جهل محض ، وهمجية صرفة ، وغاية التوحش ؛
فالإنسان في ذلك أحط من الحيوان .

هل سمعت أن ثلثمائة ألف أفعى وقتت نُجَاهَهَا مثلها وتقلبت بينها الأنياب
وقاتل بعضها بعضاً ؟ أو هل وقتت الأسود صفوفاً وتناهشت لحومها وسالت
دماؤها ؟ فليس نعمة مدنية ولا علم ، ولكن جهل وتوحش .

* * *

وللسيد جمال الدين كلمات حكيمة كان يقولها في مناسباتها .

كان إذا أقسم قال : « وعزرة الحق وسر العدل » — الحقائق لا تزول
بالأوهام — من سَفِهَ الرَّأْيَ أن يعتقد الرجل أفضليته على الغير بالعمر والمَشِيبِ
فقط — الفخر بالقول المجرد يبطله المجد بالفعل — لا يؤمن برُبُوبِيَّةِ القُوَّةِ
إلا شبح الضعف — الأَكْفَاءُ في العصر لا يكونون على الغالب أصدقاء —
تطويل المقدمات دليل على سَقَمِ النتائج — من رَهَبَ الملوِكَ لغير جَرِيْرَةٍ فهو
الصُّعْلُوِكُ — صاحب الحاجة إذا لم ينطق بحاجته أولى بالتحَرُّسِ — ألف قول

لا يساوى فى الميزان عملاً واحداً - إسراف الإنسان بصحته أضرّ من إسرافه بثروته - بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة - القبة الجوفاء لا ترجع إلا الصدى - شر الأزمنة أن يتبجح الجاهل ويسكت العاقل - الأديب فى الشرق يموت حياً ويحيا ميتاً - قيد الأغلال أهون من قيد العقول بالأوهام - القويّ من الشجر لا يعجل بالثمر - (اللغة) العربية وسّعها البدو فى البرارى والقفار، وضيقها الحضّر فى المدن والأمصار - العلم قد يكون فى الأحداث ولكن التجارب لا تكون إلا فى الشيوخ.